
دار العين للنشر
رواية
سِرُّ الصَّبيَّة
هديل محمود هويدي



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm


سر الصبيّة

سر الصبيّة

رواية

هديل محمود هويدي

الطبعة الأولى/ ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٦٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٦٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: فرانكشتاين

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣٠١٢/ ٢٠١٦
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 391 - 5

سرّ الصبيّة

روايـــة

هديل محمود هويدي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هويدى، هديل محمود

سر الصبية: رواية/ هديل محمود هويدى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٧

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٣٩١ ٥

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٣٠١٢

"عن صاحبي الذي مضى".

إلى

"أحمد عبد العظيم"



الفصل الأول

قبل الفراق أشتاتًا



وَكَأْسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبَعْلَبَكٍّ   وَأُخْرَى فِي دِمَشْقَ وَقَاصِرِينَا

من معلقة عمرو بن كلثوم



"لقد محوا جغرافية المكان، لم يُدركوا أن التاريخ يُصنع بأيدي أناس عاشوا وماتوا على هذه المساحة المقطوعة من الخرائط، بعد أن سرقوا ساعات أو دقائق من الزمن الذي لا يتوقف قبل الفراق أشتاتا، وحين يرحلون يحملون معهم حياة كاملة، فمهما بَعُدَت المسافات يظلّ الأمل المفقود أنَّ الغائب سيعود".

جزء متبقٍّ من ورقة ممزّقة، وجدتها في الصباح على أرضية الغرفة، ربما سقطت سهوًا من بين الأوراق التي بُعثرت، أمسكت بها أدقق في كلماتها، أكررها، أنا من طلبت منها أن تكتب، أنظر أمامي، ما زال الستار الأحمر مغلقا يخفي ما خلفه.

كلما أمعنت النظر في الورقة الممزقة وما تبقى منها، أخذتني الذاكرة إلى صورة الفراشة التي علقتها معلمتي على لوحة الفصل، كانت الفراشة ملونة، لم أكن لأتذكر شيئا إذا كان لدي امتحان، كنت تلميذة بليدة، كان الدرس في مدرستي الابتدائية، مدرسة "جميلة بوحريد".

فصلي القديم صورة تبدو أكثر وضوحا، الفراشة المعلقة على الحائط، وأنا أنظر إليها وأرسم دورة حياتها، في الربيع اشتريت دود قز، وضعته في صندوق من الكرتون في الشرفة الصغيرة في المطبخ، كنت أراقبه مع ظافر، فرشنا الصندوق بورق التوت الذي يتغذى عليه الدود، في البداية تكون بيضة صغيرة جدا، فتخرج منها يرقة صغيرة، لا ننتظر صناعة الحرير منه، كما شرحت لنا المعلمة -لا أذكر اسمها الآن لكن أذكر الدرس لأنه أصبح درسا عمليا- كيف تجدد الدودة جلدها وتكرر هذه العملية كثيرا، حتى تصل إلى أقصى حجم، تحوله إلى شرنقة، فيحدث لها تغيير جذري داخل هذه الشرنقة، تتحول إلى دودة، ثم تتكون لها أجنحة لتأخذ شكلها المعروف، في وقت الخروج تنتفخ الشرنقة لتسهل عملية الانبثاق، فتخرج منها لتنطلق وتطير من أجل التناسل وإنتاج فراشات أخرى.

كررنا هذه التجربة عدة مرات، كان أبي يؤكد أن دورها الأهم في أنها تتغذى على رحيق الأزهار حين تلتصق بجسدها حبوب اللقاح، عند وقوفها على الأزهار، فتساعدها على التلقيح وهي تتنقل بين الأزهار.

كان أبي يشبهنا بالفراشات، نعم نختلف في بعض الصفات، لكننا نتفق ونتشابه أكثر بكثير من الاختلاف الظاهر، أنا هي وهي

أنا، يميزنا التقارب في الشكل والخصال، لكن الغريب لا يدرك هذا، خرجنا من نفس الشرنقة وأكلنا من نفس ورق التوت، وتعلمنا الطيران في نفس الشرفة، طرنا معا، تعثرنا، سقطنا، عاودنا الطيران.

طلبت مني أن أجلس على المقعد الأمامي، وأحمل سلة امتلأت بأوراق ورد أحمر، أنثرها على الفرقة بعد الانتهاء من العرض. تذكرت تلك الأيام الخوالي في ربيع شرفتنا، أو ربما تذكرت الصورة فقط في أثناء البروفة النهائية اليوم في الصباح الباكر، لا أدري كيف نمحو ما نُحِت في الذاكرة؟ التفاصيل الصغيرة تحاصرنا. طال الانتظار وما زالت الستارة مغلقة.

***

التحقت بمدرسة جميلة بوحيرد الابتدائية، حكى لي والدي عن المناضلة الجزائرية وبطولتها من أجل الحرية. تذكَّر حكايات كثيرة في كل جمعة عندما كان يذاكر لنا يوم إجازته كان يحرمنا من الإجازة على عكس بقية الأطفال. بالصف الرابع انتقلت إلى مدرسة خولة بنت الأزور لأكون مع أختي الصغيرة "عصماء". لم تكن لي صديقات، لكن عصماء تعرفت على صبا صديقة عمرها هناك، صارت مثل ظلها، لا تفترقان إلا أوقات النوم. تركنا المدرسة

لتنتقلا معًا إلى المرحلة المتوسطة، ثم مدرسة الخنساء الثانوية لتبدأ مرحلة جديدة في حياة عصماء وصبا.

أما أنا انتهيت من الدراسة بمدرســة الخنساء الثانوية، التحقت بمعهد الفنون النســوية، تعلمت الحياكة وفنــون التفصيل، وفنون الطهـــي من أمي وجدتي في زيارتنا لها في البارة، لم يكن لدي أي طموح ســوى الزواج برجل مناسب وإنجاب الأطفال، حين تكون طفلًا صغيرًا هناك أشياء كثيرة تصلي من أجل الحصول عليها، ثم تكبر وتصبح رقمًا في هيئات وشـبكات وشوارع، تصير ملامحك نحتًا لتمثال مطلي بالرتابة ويكســوه غبــار اجتماعي أنيق لا غنى عنه، ويصبح الانكماش عادة مفرطة، انكمشــت على نفســي بعد انتهاء دراستي، لم يحدث يومًا أن كانت لي صديقة أزورها وتعاود زيارتي فقط مجرد زميــلات وليس لدي حكايات كثيرة كي نحكي عنها وننشغل بها، هكذا كنت أختلف عنها في الشكل بعض الشيء عصماء أجمل منـــي، كما كان يقول أبي دائمًا، جيداء الأكثر طيبة وعطاء، عيناي بلون الزيتون، تشبه عينيَ أمي كثيرًا.

ظافر كان يعشق اللعب والحياة، يهلل بصوت عالٍ دائمًا، على عكس هدوء أبي، ربما لتدليل أمه الزائد له - من وجهة نظر الجميع - برغم مغامراته الكثيرة كان خفيف الظل ومرحًا. كان يريد أن يلتحق بكلية الهندسة ويعمل في مجال البرمجيات، لكنه لم يسعَ كثيرًا من أجل تحقيق هذا الهدف، ولم يجتهد في المذاكرة من أجل

تحقيق حلمه، وجاءته مفاضلة القبول بالجامعة، والتحق بالمعهد التقني للحاسوب بإدلب.

خاطر ابن عمي، كان وحيدا ومدللا بعض الشيء، التحق بمعهد الترجمة الفورية بالشام، الأهم أنه لديه دائما ما يسعى للوصول إليه، صبا كانت تأتي إلينا في البيت لحضور درس اللغة العربية مع عصماء، ولغرض آخر هو رؤية خاطر الذي كان ينتظرها على الدرج بعد الانتهاء من الدرس، كانت عصماء تراقب حركة الصعود والنزول لحين انتهاء حديثهما الذي يستغرق دقائق، وحين تعود صبا إلى بيتها تحدثه هاتفيا لساعات، كنت أوبخ عصماء على أفعالها، وأنها تعمل ناطور للعمارة لحراسة غراميات الدرج، وهددت يومًا خاطر بفضح سره، ربما لو كان ظافر ما كنت انفعلت، لا استهجن أفعالهم الصبيانية ولا فرق بينهم، أنا أحب خاطر وأفتقده، لكن في حقيقة الأمر كما تمنيت ظافر يؤثر قلب صبا الجميلة، لم يؤثر قلب أي فتاة ليعيش لأجلها.

كنت أكتفي بمشاهدة الجميع، أدركت عصماء أن المذاكرة هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق غايتها، أعلنت أمامنا أنها تريد الالتحاق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، في آخر علم دراسي في شهادة البكالوريا كان أبوها يشجعها على أن تُكمل دراستها، وتملكته الحيرة أكثر منها، هل تدرس اللغة العربية والأدب؛ لتجيد كتابة الشعر كما كان يرغب؟ أم أن حبها لدراسة الفلسفة وعلم النفس

سيتغلب؟! كانت تدور بينهما حلقات نقاش وهو يذاكر معها، وأنا أضحك أنه يصدق هذه الأكذوبة، وينفعل احيانًا وهي تدعي حب علم النفس والفلسفة؟

على الرغم من زعمها التركيز الشديد من أجل تحصيل أعلى العلامات والالتحاق بالجامعة، كان هناك سبب آخر لتعلقها بالجامعة هو أيهم، صديق ظافر، كانت تنتظره حين يأتي ليُنادي على ظافر للخروج، وعند سماع صوته كانت تقفز تجاه النافذة لترى ماذا يرتدي، الحقيقة أنه كان منمقًا في كل شيء، في ملبسه وكلامه وأفكاره لا أنكر أنني كنت أحبه وكنت أخشى عليها فقط لم أخشَ عليها من أيهم تحديدًا كنت أخشى عليها من الحب ذاته. بعد التحاقه بجامعة حلب بات لا يأتي كثيرًا، كانت تمر أمام منزله باستمرار إذا ما كنا معًا، تتمنى أن تراه مصادفة، الأمر كان صعبًا، فهو صديق أخيها وابن عمها، كانت تعرف عنه كل شيء من حكايات ظافر، أو من خلال صبا عندما تسأل خاطر عنه دون أن يدري أنها تسأل من أجل عصماء.

هكذا كانت الأمور مستقرة بين الحين والآخر يأتي خاطب أتردد في القبول أدرس الموقف كدراسة مشروع هلم ربما لأن هذا ما مشروع حياتي، حتى بدأت مظاهرات في مصر نعم هكذا توترت الأمور وتأزمت في بلادي، لم أر أبدًا مظاهرات في إدلب ولا سمعت عنها في الشام، لكن على استحياء صارت مظاهرات

مصر، هي حديث كثير من الناس والجيران والأصحاب، الجو يملأه خوف من أن يُفسر ذلك بأنهم غير راضين عن الأوضاع في البلاد. هكذا بدت لي الأمور، أبي كان يتابع الأمر عن كثب، كان يمكث كثيرًا من الوقت أمام الشاشات من قناة إلى أخرى لأيام وليالٍ، لكني لم أهتم كثيرًا لأمر مصر ومظاهراتها، كل ما يهمني وقتها هو عودة العريس الأخير، الذي حدثتني عنه عمتي وفاء قبل اندلاع الأحداث، قالت لي أنه يعمل مع والده في تجارة الملابس ولديه محل خاص في حلب، تحديدًا في هذا الوقت كانت لديه سفرة عمل في تركيا، لاستيراد وتصدير ملابس في إسطنبول، رسمت أحلامًا وردية للحياة في حلب، حياة أكثر ثراءً ورفاهية، كلام عمتي عن أعماله وأسفاره جعلني أنتظر مستقبلي بتفاؤل، بعد خيبة أملي في عريس سابق كان مدرس تم تعينه في مدرسة أبي وبعدها فترة تقدم لي، وبسبب ضيق حاله لم تتم الخطبة، أجمل ما عشته وقتها هو حلم الانتقال لأكون أسرة في حلب، سأمضي شهر عسل على شواطئ تركيا كما رأيتها في المسلسلات المدبلجة، كنت يومًا هناك حيث ثقتي في تعقلي، أضحك الآن لأنني كنت أبغض طيش أختي ورفيقتها، هوت الأحلام وبكل أسى دخلت تركيا من بوابتها الخلفية.

***

بدأت الأحداث في مصر تتطور في الثاني من شباط حدث ما عُرِفَ بموقعة الجمل في ميدان التحرير، قامت مجموعة مستعينة بالجمال والخيول في الهجوم على معتصمي الميدان، وبدأ الحديث عن الرحيل والبديل بعد مبارك، أصبح الأمر معقدًا ومشوشًا، وبدا المشهد السياسي في مصر أكثر ضبابية، لكن ما كان لافتًا للنظر هو التخوف من وجود جماعة الإخوان المسلمين.

مرت الأيام ونحن لا يقل اهتمامنا بأحوال مصر بل يزداد، كنت أساعد أمي في إعداد الكوسة المحشية من أجل ظافر، لأنه كان مسافرًا مع خاطر لحضور دورة تدريبية بالشام لتعلم بعض التقنيات الخاصة بالبرمجة، أما عصماء فقد تفرغت لتقشير عدة كيلوجرامات من البازلاء من أجل الاحتفاظ بها وتجميدها واستخدامها في غير موسمها، وبعد الانتهاء من الغذاء كعادتي في المطبخ أغسل الصحون، وفجأة سمعت دويًا من الخارج، فهرعت لأجد أبي يهلل فرحًا مع فرحة المصريين برحيل مبارك بعد 18 يومًا في برد الشتاء القاسي، افترش المصريون فيها الشوارع والتحفوا العراء من أجل رحيله، ما هي إلا ساعات وسافر ظافر.

***

عادت عصماء إلى المدرسة، بعد انتهاء العطلة النصف سنوية، كانت الأمور هادئة فيما عدا متابعة نشرات الأخبار، ثمة ثورة أخرى انطلقت في ليبيا ضد معمر القذافي، وثورة في اليمن ضد علي عبد الله صالح، وكأن الجميع يترقب، هل ستكون هناك دعوات مماثلة في سورية؟ صار يوم الجمعة يومًا مميزًا لدعوات المليونية. يقضي أبي معظمه في مشاهدة القنوات الإخبارية تنقسم الشاشة إلى مربعات، مربع يرصد ميدان التحرير بالقاهرة، فالثورة لم تهدأ هناك بعد، ومربع آخر يرصد اعتصامات صنعاء، وآخر ينقل صورًا من بني غازي. غليان واضطراب في كل مكان. الأبخرة تتصاعد وتدور بها التروس لتدفع بعجلة الاحتجاجات إلى الأمام دون توقف.

حين يتحدث ظافر يُطمئِن الجميع بأن الأمور في الشام مستقرة ولا توجد دعوات للتظاهر، ولكن ما لبث الأمر أن اشتعل في البلاد مع بداية آذار.

قُضِيَ الأمر، أُشعِلَ الفتيل، كثرت الأقاويل حول بداية الثورة. منهم من قال إنها بدأت في درعا على أثر احتجاز قوات الأمن لمجموعة من الأطفال كتبوا على سور مدرسة عبارات مناهضة للنظام تشبه كثيرًا عبارات ميدان التحرير بالقاهرة، ما أثار غضب الأهالي لاحتجاز أبنائهم الصغار، وخصوصًا بعد نشر صور

تعذيبهم، قاموا بمسيرات منددة عقب صلاة الجمعة بمسجد العُمَري، بعدها سقط ستة قتلى، فاشتعلت النار أكثر حتى صار من الصعب إخمادها.

آخرون يرون أن السبب في الثورة هو الدعوات التي شنَّها النشطاء على صفحات الإنترنت، وخصوصًا صفحات التواصل الاجتماعي، وحددوا موعدًا لها هو الخامس عشر من آذار. قالوا إن هناك تجمعًا بسوق الحميدية في دمشق، حاصرته قوات الأمن واعتقلت كثيرين وبدأت في حملات اعتقال للنشطاء السياسيين.

زاد الخوف على ظافر عقب كل مكالمة يتحدث فيها من الشام كنا نلتقط أنفاسنا لأنه بخير وبعيد كل البعد عن هذه التظاهرات. باتت الأخبار هنا أكبر بكثير من مجرَّد متابعات للأحداث الخارجية، فالشعب ينتظر بيان الحكومة أو خطابًا يهدئ من روع المواطنين، حتى أطل علينا بشار في الثلاثين من آذار ليلقي خطابه الأول أمام مجلس الشعب. في بداية خطابه قام أحد النواب لتحيته بأبيات شعر ليدوي صوت تصفيق حاد في القاعة، ثم استرسل من جديد، واعتذر عن تأخر خطابه، تكلم عن حراك في المنطقة، وهذا يؤثر على أمن البلاد، وتحدث أن ما يحدث في البلاد مجرد فتنة وأنه ماض في طريق الإصلاح وما يحدث يجب ألا يؤثر علي الحاجات اليومية للمواطنين، ولأول مرة أستمع لخطاب كامل للرئيس، وبالأخير لم يأتِ بجديد، مع بداية نيسان بدأت الأمور تتأزم أكثر، خصوصًا في

جنوب البلاد، ولكن المدينة كانت الحياة فيها طبيعية جدًا، ما أذكره جيدًا أن خطاب بشار الثاني كان يوم الاحتفال بعيد ميلاد عصماء يوم السادس عشر من نيسان. جلس الرئيس وسط وزراء حكومته الجديدة واعتذر للشعب لأنه يعاني من التهاب بالحلق، ضحكنا وعقلنا هذا من أثر الصراخ، أشار إلى انشغاله الأسبوع الماضي بالفعاليات الشعبية المؤيدة في كافة المحافظات. لكن أجمل ما حدث أنني أعددت في هذا اليوم كعكعة بنكهة الجزر والقرفة من أجل الاحتفال بعيد الميلاد. أغمضت عيناها من أجل الأمنيات ثم أطفأت شمعة عامها السابع عشر.

***

مع بداية آيار كانت بداية المعارك في جسر الشغور وغيرها من القرى، وما عدت أهتم بنشرات الأخبار والأحداث التي يتابعها أبي باستمرار، كنت أنتظر عودة العريس الحلبي واتصال عمتي، اللقاء تأخر من سفرة إلي أخري يخشي علي تجارته كما فهمت يريد تأمين حاله، في تركيا خوفًا من إزاحة الرئيس فجأة عن السلطة هكذا قالت لي وأخبرت الوسيطة عمتي هي تعرف عائلته، أكدت أنه رأى صورتي وأعجب بها.

مــرت الأيام بطيئة علي لكن أحداثها ســريعة، يومًا جاء خالي

لزيارتنا والاطمئنان علينا، كان أبي في المدرسة لانشغاله بموسم الامتحانات، جلست معه أنا وأمي بعد أن تركتنا عصماء للمذاكرة، أعددت لـه القهوة وبدأ يحكي لنا ما سمعه وما تـردد في قرى جبل الزاوية، بعد نحو عشرة أيام من الصراع بين قوات الأمن والجماعات المسلحة، تمكن الجيش النظامي من السيطرة على مدينة جسر الشغور.

قال إن القوات حين دخلت المدينة كانت خالية تمامًا وتشبه مدينة هجرها أهلها منذ زمن، نزح أهلها للقري المجاورة، الجميع قال أنها عاصفة ستمر سريعًا، وبعدها قامت قوات الأمن باعتقالات عشوائية في القرى المجاورة لقمع المتظاهرين في هذه القرى اعتبر هذا انتقال العمليات العسكرية للمدن والقرى الأخرى.

ظل يحكي وأنا لا أعلق ولا أفهم حقًا ما يدور في قري جبل الزاوية، أصر على الرحيل لم ينتظر حتى عودة أبي، طلبنا من كثيرًا أن ينتظر موعد الغذاء لكنه تعلل بأن الطرق غير مؤمنة وأنه اطمئن علينا وكان هذا غرضه، أغلقت الباب وراءه، وأمسكت بالتليفون واتصلت بعمتي وفاء، طلبت منها الاتصال بأبي فور الانتهاء من امتحانات عصماء، أوشكت على البكاء، قلت لها أني أخشى من تطور الأحداث وحكيت لها ما قاله خالي في زيارته، من خوفي وقالت إن كل شيء سيصير على ما يرام، وأن ما يحدث

مجرد زوبعة في فنجان وأن الأوضاع ستهدأ في البلاد وتعود لسابق عهدها، وستفرح بي قريبًا.

***

بنهاية شهر حزيران كانت عصماء قد انتهت من الامتحانات، لكن الأخبار اليومية تؤكد استمرار توغل الجيش السوري النظامي في العمليات الموسعة في قرى جبل الزاوية، واستمرارًا لسقوط مزيد من القتلى. تركزت القوات في عدة قرى وبدأ القلق يزداد. أمي زاد قلقها على أهلها في البارة، ولا تفارق الهاتف والاتصال بهم طوال الوقت، البارة صارت واحدة من مسارح الأحداث كانت تطمئن على عائلتها من أبناء عمومتهما هي وأبي.

دعـــا أهل القرى لمظاهرات جديـــدة، في جمعة اليوم الأول من شـــهر تموز، ضرب الجيش النظامي القريـــة، ثم حاصرها وقطع عنهـــا الكهرباء والماء والاتصالات، وبات من الصعب تقديم أرقام دقيقة لعدد القتلى والضحايا والمعتقلين، أو حتى عدد الدبابات التي دخلت القرية. لقد اســـتخدمت القـــوات القنابل الصوتية والضوئية، وانشـــق عدد جديد من ضباط الجيش، ودخلوا في اشـــتباكات مع الجيش الأســـدي، ما أثار جنونه مجددًا فضـــرب القرى بالمدفعية الثقيلة. شـــهدت القرية في الصباح إمداد القوات بأســـلحة وأعداد

أكثر من الجنود المسلحين، فاقتحمت القرية بالكامل وشنت حملة اعتقالات عشوائية موسعة، وسقط عدد جديد من المدنيين، ودمَّر الجيش منازل من قال عنهم إنهم يساندون المنشقين.

ظلت الاتصالات مقطوعة لأيام، وبات القلق سيد الموقف، فأمي لا تنام خوفًا على أهلها، حتى جاء إليها ابن أخيها ومعه جدتي لأمي، روى عن الأحداث التي شهدتها القرية الأيام الماضية، فقد لجأ عدد من الأهل للمخيمات التركية، وحكى لها عن معاناة الأهل عند النزوح إلى قرية تفتناز واستأجروا بيتًا هناك، واستقروا فيه لأنها القرية الأكثر أمنًا لوجود مطار عسكري تابع للجيش النظامي فيها.

دبت الكآبة في أنحاء البيت، بل في المدينة، بل في سورية كلها، يوم الجمعة الخامس عشر من تموز خرجت مظاهرات لأول مرة في مدينة إدلب، جاءت على أثرها أشدّ حملة اعتقالات شنّها النظام منذ بداية الثورة لتشهد المدينة سقوط أول شهدائها.

الفصل الثاني

أسفل مقصلة



قِفِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ يَا ظَعِينَا نُخَبِّـرْكِ اليَقِيـنَ وَتُخْبِرِينَـا



تذكــرت ركام العتمة والصمت، ســالت دموعها كحبات اللؤلؤ المنثور على وجنتيها برحيقٍ ملائكي لا تهدأ ولا تنطفئ، حاولت أن أنفض غبار القبر عن يدها وهي تكتب عن كل الأشياء التي تعرفها، كل الأشــياء التي تجيدها. الأوراق أمامها لتكتب وتسجل في دفتر محاضراتها، وكان الليل في أوله.

كانت الدقائق والساعات لا تمر كنا نتكلم في سكون الليل وقت السحور نجتمع للدعاء له، والدي لم يعرف المعارضة يوما، كان يحب سورية أكثر من أي شيء، كيف يموت مقتولا بيد قوات الأمن في مظاهرة معارضة للنظام؟ أي نهاية كانت تنتظره، نهاية غير متوقعة، لكن هل كان كل ما حدث من الواقع؟ أو محض خيال.

مرت آخر أيام رمضان في استقبال العزاء، التزمت أمي غرفتها لا تتكلم إلا قليلا، ولا تخرج منها إلا وقت استقبال أحد الزائرين، دائماً أحمد الله أنه مات في شهر رمضان المبارك، ربما هذا جزاء الصالحين أمثال أبي، أنا توليت مهام الطبخ، أمّا عصماء فكانت

تؤدّي أعمال التنظيف والاعتناء بالبيت، لكنها آثرَت الصمت أيضًا. صبا كانت تزورها باستمرار، تحاول أن تشجعها من أجل إتمام الأوراق المطلوبة للكلية وهي ترفض وتصر على أنها لا تريد الالتحاق بالجامعة.

كان ظافر بين نارين، اتصل به باسل وقتها لمواساته. عندما أخبره خاطر بوفاة أبي فاعتذر له لأن الظروف التي يمر بها لا تسمح له بالرجوع إلى الشام وكان في انتظاره بعد عيد الفطر، لكنه عاود الاتصال به وصار لا يرد اتصاله، لم يفقد الأمل في الوصول إلى حل للهروب من جحيم إدلب المحقق، نراه في البيت في القرى المشتعلة حولنا، واصل الاتصال به لكن في ليلة العيد أغلق هاتفه لأيام.

لكن هاتف عصماء رن، ليلتها وأنا كنت جوارها وعندما نظرت إليه وجدت اسم أيهم يظهر على الشاشة، اضطربت مشاعرها، واحتقن صوتها وهي تردّ عليه وسمعت ما دار بينهما.

- عصماء كيفك؟

- والله منشكره على كل شيء.

- ينعاد عليكي بالخير.

- وينعاد عليك.

- اشو صار معاكي بموضوع تسجيلك بجامعة حلب حكيتي مع ظافر ولا لسى.

- (بعد صمت طويل) لا والله ما فاتحتو بالموضوع، وعلأغلب ما رح إقدر سجل هل سنة.

فهمت منه أنه اتصل بها بناءً على اتصال من صبا، قالت له إن عصماء لا تريد الالتحاق بالجامعة. ظلّ يحدثها عن الصبر والأمل والرضا بقضاء الله وقدره، وأن عليها مواصلة حياتها واستكمال أحلامها، وأن الأوضاع ستعود يومًا إلى طبيعتها ولا داعي لليأس. وجدت في اتصاله بارقة أمل جديدة يمكن أن تحيا من أجلها.

تجنب الجميع الحديث فيما بعد موت أبي حتى آخر أيام العيد، أعلن ظافر عن مخططه للانتقال للشام بسبب الاضطرابات في البلاد، ظل يبرر أن الشام أكثر أمنًا لسيطرة النظام عليها، وأنه لا يأمن تركنا عندما يعود إلى عمله، فعلّقت أمي ارتباطنا بجامعة عصماء، فجاء رد ظافر

- اشو جامعة ما جامعة انا ماني شايف في اهمية للجامعة بهل ظروف يلي عايشينها.. خيتي إلا لو حاولتي تنقل وراقك لجامعة دمشق.. ما عدت طايق القعدة بحلب

خاطر أكد كلام ظافر وأنه كان ينوي نفس النية. لم تُبدِ عصماء أي قبول للفكرة، ولم تعلق بالرفض، ربما تنتظر الوقت المناسب بعيدًا عن حماسة وانفعالات ظافر، أما أنا فتحدثت حديثًا جانبيا مع أمي ذكرتها بالعريس الحلبي، الذي اتصل فقط للعزاء بعد عودته من تركيا، فاقترحت عليها أن ننتقل إلى حلب بجوار عمتي وفاء، ويبحث ظافر عن عمل هناك فهي أكثر أمنًا من إدلب بعد نزيف الحرب في ريفها، اقتنعت وقالت إنها تحب حلب وتعرفها أكثر ولن تشعر بالغربة مثل وجودنا في الشام، وتخشى الانتقال للشام.

انتظرت حتى سنحت لي الفرصة، ظافر ظل حائرًا لأيام بين البقاء معنا أو الرحيل، للترتيب لحياة جديدة في الشام، ولكن ما زاد ارتباكه انقطاع أخبار باسل بين كل الأصدقاء. حاول الاتصال به كثيرًا بعد آخر مرة اتصل ليحاول الاعتذار له بعد وفاة أبي مباشرة، كان قلقا عليه، لم يعد همه العودة إلى الشام بقدر الاطمئنان على باسل، حتى استطاع الوصول إلى والده وقال له إن قوات الأمن ألقت القبض على ابنه بنهاية شهر رمضان ولم يستطع أحد التوصل إلى مكانه، وكل يوم يسعى في محاولات بائسة لمعرفة أخباره. تملك اليأس والإحباط من ظافر، أدرك أن الأمن يشنّ حملات اعتقال لكل من يتعاملون مع الإنترنت، هل يسافر بحثًا عن أمل جديد في مكان آخر؟ عرضت عليه فكرة الرحيل إلى حلب عند عمتي وفاء، اقتنع سريعا، أصبح من الصعب عليه أن يظل مستقيمًا ليواجه،

أبى أن ينتظر منحنيًا، ففي النهاية ستكسر الريح كل مستقيم ظافر ما أُعِدّ ولا اختير للعداء، لكن الثأر الذي نما بين الضلوع بات كل ما يتمناه.

***

استيقظت في تلك الليلة عند الفجر على صوت أمي، قالت إن عصماء أيقظتها وقد ارتفعت درجة حرارتها، حاولت بكل ما توفر لديها من دواء إسعافها، وضعت لها قطع قطن فوق جبينها وضعتها في الماء المثلّج، انخفضت حرارتها نسبيًا حتى جاء ظافر بالطبيب في الصباح، ظلت طريحة الفراش لأيام فأجّلنا السفر. وعندما بدأت حالتها في التحسن بعض الشيء، استيقظت يومًا فوجدت شللًا بالجانب الأيسر من وجهها. قال لها الطبيب المعالج

- هذا المرض معروف باسم العصب السابع -Facial nerve- ما في داعي للقلق عيني خير.

هكذا قال الطبيب، لم نفهم أسباب هذا المرض. صارت عصماء تأكل بصعوبة بالغة، وعيناها تدمعان بشكل مستمر، مع حدوث تشوه في وجهها، مما أصابها بحالة اكتئاب، كنا جميعًا نجلس حولها بشكل دائم للترويح عنها ولتنظيم مواعيد الدواء، كان ظافر يحاول

إضحاكها يصعب علينا حتى الابتسامة. منذ ذلك الحين أدركت أن الضحك أصبح رفاهية غير ممكنة، لم نسافر إلى حلب، انقطع اتصاله بعمتي، ثم علمت أنه خطب فتاة أخرى أخفت عني الخبر لفترة وقالت تعللت كثيرًا إنه عاود السفر إلى تركيا حتى صار هذا التعلل بلا جدوى.

أسابيع وهي مريضة، تكاليف العلاج الكيماوي والطبيعي مرتفعة، وبدخول فصل الشتاء ارتفع سعر قنينة الغاز من 500 ليرة إلى خمسة آلاف ببداية تشرين الثاني اتصل ظافر بصديقه باسل، بعدما علم من خاطر بخروجه من الحبس، قال له إنه سيسافر إلى بيروت لتلقي العلاج هناك. بدأت أفكار ظافر في التشتت من جديد، فالسفر إلى حلب أصبح غير مضمون، والأوضاع تزداد تعقيدًا.

حاولت البحث عن عمل -كمدرس وكيل-، فمعظم المدرسين والمدارس بالمدينة تعرف أبي، ولكني فشلت في إيجاد عمل بسبب الاضطرابات، فلا توجد أي وظائف يمكن البت فيها، مع حالة الحرب على حدود المدينة، حالة عصماء ازدادت سوءًا خصوصًا بعد ما سافرت صبا فجأة إلى الأردن عند أقارب لها مستقرين هناك منذ سنين لتستقر أسرتها أيضًا هناك، وقالت إنها ستلتحق بالجامعة في عمان. صارت لا تتحدث أمام الغرباء وثَقُل لسانها ولا تتحدث أمام ظافر، وأحيانًا تتلعثم في الكلام معي أنا وأمي، قال

لنا الطبيب، إن هذه حالة من الاضطراب النفسـي ستسـتمر لفترة وعلينا بالصبر.

***

بـدأ الجيش الحر في شـن هجمات على الجيـش النظامي مع اسـتمرار انشـقاق الجنود، وانتشـر الجيش النظامي بقرى جبل الشغور، ولم ينسحب منها منذ دخلها في حزيران، ما أدى إلى فتح باب التطوع في الجيش الحر. المدينة هادئة، لكن الأسـعار ترتفع، وأصبـح من الصعب الذهاب إلى حلـب لمواصلة علاج عصماء. اتصل باسل بظافر من لبنان يخبره أنه سيرحل إلى مصر وسيكون هناك بكانون الثاني، لأن فرص العمل هناك أفضل للعمل في مجال البرمجيات. واشتكى له أن الحياة في لبنان مكلفة. بمنتصف كانون الأول قـرر ظافر الأمر أصبح أكثر تعقيدًا. قال إنه ينوي الرحيل إلى مصر واللحاق بباسل هناك.

صارت خلافات كثيرة بيننا ولكن ظافر أكد لنا أن جحيم جبل الزاوية قادم إلينا ويقترب كل يوم لا محالة من ذلك لأنه بدأ خطة جدية للسفر إلي مصر عن طريق تركيا في خلال أيام.

كان علينا أن نجمع أغراضنا من جديد، وجدت بين الأغراض صورة قديمة التقطت على شاطئ رأس البسيط مع ظافر وخاطر،

كان عمري ست سنوات، ضحكتي كانت من دون أسنان، كل ما أذكره من طفولتنا أن أبي وعمي كان ينتظران أيام إجازة عمي ونذهب مرة أو مرتين في الصيف نقضي يومًا على الشاطئ ونعود عند مغيب الشمس، وصورة أخرى مع قصر صنعته مع ظافر من الرمال الشاطئ. تذكرت أن القصر لم تهدمه موجة عالية طال بها الأمد لتصل إليه، ولكن هدمته قدم رجل عابر لم يلتفت لوجوده على الأرض ومضى في طريقه دون الإحساس بالذنب. كم تكبدنا عناء ونحن أطفال، ربما لو هدمه موج البحر لكان درسًا نتعلم منه أن قصور الرمال لا تُبنَى على مقربة من الأمواج.

أمي وافقت على الرحيل لأن الجميع أخبرها بأن في مصر أطباء متخصصين في علاج حالة عصماء، ومن أجل هذا الفزع الذي تملكها بعد موت أبي. كانت تريد أن تترك البيت، تركت غرفتها بعد موت أبي وتنام بجواري، ثم انتقلت بجوار عصماء منذ أن مرضت، وفي كل مرة تدخل غرفتها تتعلق عيناها بظله وتتنفس ببطء زفيره الذي لا يزال عالقًا بذرات الهواء التي تقاسمته معه، لا أحد يعرف أني عثرت على ورقة كتب فيها شعرًا لأبي علاء المصري احتفظت بها معي، وشعرًا آخر من تأليفه ولن يقرأ أحد ما كتبه على ورقة منسية، احتفظت بها مثل أوراق عصماء الممزقة.

سوف ألقاك خارج الحدود الملموسة لمسمى اللقاء..

أتوق لاستدعائك كجار حميم يهب لنجدتي

سوف تأتين ولا تأتين ويصير حضورك..

مثل انتظار العطشى لمطر الصحراء.

***

لم أعترف أبدًا بمشاعر الحسرة والألم على ضياع العريس الحلبي، وما شعرت به حيال دخولنا من المعبر الحدودي باب الهوى، انتظرت كثيرًا الوصول لتركيا، لكن الانتظار اليوم أصبح كل الهوى وكل الأمل حين أعبر كل الحدود لأصل إليه، حتى انتظاري الآن لأن تفتح الستار شعور مزيج من القلق والبهجة والتغافل.

وصلنا إلى مطار القاهرة، بدأنا بتنفيذ التعليمات بالمضبوط استقللنا تاكسي من مطار القاهرة إلى مدينة السادس من أكتوبر. القاهرة مزدحمة بشكل لافت، طريق طويل لا أذكر منه شيئًا، نامت عصماء طوال الطريق على كتف أمي من شدة الإرهاق حتى وصلنا إلى مسجد الحصري في مدينة السادس من أكتوبر، وهناك استقبلنا رجل داخل المسجد، على الفور طلبت منه أمي

- يرضالي عليك أخي بدي روح للجمعية الشرعية، قالولي لما اصل عند جامع الحصري نسأل على الجمعية وهنيك بدلونا.

قال لنا إن الجمعية الشـــرعية بمســـجد الخلفاء الراشدين بالحي الرابع ســـتتكفل بأمر المبيت، وطلب منـــا الانتظار قليلاً في داخل غرفة مجاورة للمســـجد، حتى استأجر لنا ســـيارة مدفوعة الأجر وأرسل معنا شابًا للاطمئنان علينا.

وأمام مسجد الخلفاء الراشدين دخل الشاب ليخبر بمجيء لاجئين جدد سيدات كما قال، تركنا ظافر هناك في انطاكيا، وعدنا بأن يلحق بنا، خرج إلينا نفس الشاب ليساعد السائق في إنزال الحقائب. كانت الشـــمس قد اقتربتْ على المغيب وسمعنا ســـماعات المسجد تأذن لصلاة المغرب. اســـتقبلنا رجل آخر، وطلب منا ملء اســـتمارات لعمل ملفات، وطلب جوازات الســـفر لنســـخ صور منها لوضعها في الملف الخاص بالســـوريين الوافدين، لبحث حالتنا وكيف يمكن مســـاعدتنا. طلب منا البقاء داخل المســـجد في الجزء المخصص لصلاة الســـيدات، كان خاليا تماما، وســـمعنا إقامة صلاة المغرب للرجال، صليت صلاة المســـافر لم ألحق صلاة الجماعة، استلقيت بعدها علي الأرض بجوار حائط لارتاح، بعدها بقليل أحضِرت لنا سيدة وجبة ساخنة من أرز ودجاج أدركنا أنها من مطعم قريب برغم إنهم وضوعها في أطباق ولكن أحضروا معها معلق بلاســـتكية ثم جاءت السيدة مرة أخري لتحمل الأطباق الفارغة تماما من الجوع، ســـألتنا إذا كنا نريد شيئا آخر، كان طلبنا الوحيد هو النوم أحضرت

لنا بطاطين، وأدركنا أنه يحق لنا التســـطح في المسجد والمبيت فيه لحين وجود مكان للإقامة.

***

في الصباح الباكر أحضرت لنا ســيدة أخـــري وجبة الإفطار، وقالت إن الشيخ طلعت هو المسئول عن ملفات السوريين بالجمعية الشرعية وسيطّلع على الملفات اليوم.

مرت ساعات طويلة من الانتظار حتى جاء الشيخ قُبيل صلاة الظهر، وبعدها بنحو ساعة، طلب الشيخ مقابلتنا بعد الاطّلاع على الملفات، صعدنا إلى مكتب الشيخ، كان في انتظارنا، كان شيخا ملتحيا بلحية رمادية كثيفة، تظهر في جبينه علامة السجود، قصير نسبيًا وممتلئ البنية، يرتدي جلبابًا أبيض، سأل أمي عن رحلتنا وماذا حدث لنا؟ فحكت له ما حدث في الأشهر القليلة الماضية منذ اندلاع الثورة في مصر حتى وصولنا إلى القاهرة، ثم قالت إنني أتمنى أن نجد مكانًا بأجرة مناسبة للإقامة فيه. ولا أخفي عليك كل ما يشغل بالنا هو علاج عصماء وأن تعود إلى طبيعتها.

- يـــا أم ظافر، اطمنــــي انت في عيننا، هتروحي مع الســـواق وتشوفي للبنات الحلوين شقة تليق بهم.

هاتفَ سائقًا للمجيء إلى مقر الجمعية، وأخبرنا بأن الجمعية لديها أربعة عقارات بالحي الرابع بجوار مسجد كما قال لنا اسمه مسجد "عماد راغب"، وعقار آخر بالحي الخامس خلف مسجد "أبو بكر الصديق"، ولدينا حرية الاختيار في اختيار الشقة التي نريد الإقامة فيها. اخترنا الأخيرة وكانت علي مقربة من الأولى ولكنها الأفضل، ودعنا على أن يلقانا في منزلنا الجديد، حمل السائق الحقائب إلى السيارة، واتجه أولًا إلى بنايات الحي الرابع، وشرح لنا طبيعة كل بناية من حيث عدد الغرف والخدمات الموجودة بالبنايات، ثم توجه بعد ذلك إلى الحي الخامس، فأحببت المكان أكثر، وعصماء أيضًا أشارت إلى أمي أنها تريد البقاء في هذه البناية.

طلبت أمي هاتفًا أعطاها السائق هاتفه، فسألت عن شراء خط خاص بها مصري كي تطمئن على ظافر، في التو واللحظة أخرج لها السائق خطًا مصريًا من جيبه هدية لها وضعته في هاتفها واتصلت بظافر قالت إن المصريين أحسنوا استقبالنا، وشيخ طيب خصص لنا شقة فاخرة، قال لها أنه عاد إلى إدلب

- ما يكلك فكرة بأقرب بوقت لح كون بالقاهرة

- احفظ رقمي المصري، ودير بالك حالك ابني.

الشـــقة كانت مكونة من ثلاث غرف ومفروشـــة بأجود أنواع الأثـــاث، أرضيات رخام، بهـــا جميع انواع الأجهـــزة الكهربائية الحديثة غســـالة لجلي الصحون أكره جلي الصحون ودائمًا أترك جليهـــا لعصماء، فرن كهرباء وغســـالة أوتوماتيك ومكيف هواء، وحمام رفيع الذوق. كنا في غاية الســـعادة. في المساء زارتنا سيدة تدعى الحاجة نادية، ســـيدة متوســـطة الطول، ومتوســـطة الوزن ملامحها مصرية خالصة بشرة خميرة وعيون غائرة سوداء، لكن نظرتها كانـــت واثقة ثاقبة، كانت ترتدي عباءة ســـوداء وطرحة بيضاء كبيرة نســـبيا تقوم بتثبيتها بعدد كبير من الدبابيس كما تفعل الســـيدات المصريات، قالت لنا أنها تعطي دروسًـــا بأحد المساجد القريبـــة. أحضرت معها ســـلتها يحمل مؤنًا مـــلأت بها الثلاجة، أعددت لها قهوة، جلست تشـــربها مع أمي. حدثتنا عن مصر بعد الثورة والأجواء المتوترة وحكم المجلس العســـكري.

كانت الأجواء كلها مشحونة سياسيًا بحلول الذكري الثانية للثورة، ظلت تشـــتكي لنا من الأحوال وظروف حكم المجلس العســـكري في مصر وأطلقت عليها أحداث نوفمبر الماضي وأجواء انتخابات مجلس الشـــعب، ثم قالت إن اللـه ســـينصر عباده الذين ثاروا ضد ظلم الطاغي مبارك، والحمد للـه مجلس الشعب قادم يقاسم المجلس العسكري السلطة.

لم تُطَق أمي، فهي لا تعرف ما يدور في مصر، كل ما تعرفه أنها خسرت أبي ورحلت عن وطنها. فقط طلبت منها المساعدة في علاج عصماء وفقط تحدثت نادية إليّ عن جمال مذاق القهوة من يديّ، أخبرتها أنني أحب الطبخ كثيرًا وأجيد عمل جميع أنواع المحاشي والحلوى فوعدتني أنها ستأتي في القريب لتتناول الطعام من يديّ.

***

زادت التوترات السياسية في مصر أحداث متتالية بعضها نفهمه وبعضها نسمعه ودائما لا نطق، تم فُتح باب الترشح للرئاسة، وانشغل المصريون بالصراعات السياسية الحقيقية، ندرت زيارات الحاجة نادية. أمي لم تكن تعرف أنها كانت مشاركة في حملة لدعم أحد المرشحين للرئاسة، أما الشيخ طلعت فكان يزورنا بشكل مستمر؛ للاطمئنان علينا وشراء المتطلبات الشهرية. بدأت عصماء ترتاب من زيارته، انعكس هذا الشعور على تصرفاتها في أثناء وجوده ولا تحسن استقباله، ولا تستطيع البوح بكل شيء، وما زالت تتلعثم في الكلام. بصعوبة، بدأت تتحدث مع ظافر عبر الهاتف، حكت له عن كرهها غير المبرر للشيخ طلعت، سمعتها تقول له إنه رجل ثقيل الظل، ولكننا أحببنا مصر كثيرًا، المراكز التجارية هنا رائعة،

الحي آمن والموصلات متوفرة، كنت دائمًا أتسأل آن وقت قدومك يا ظافر.

كنت أخرج مع عصماء باستمرار في مدينة السادس من أكتوبر وكنا سعداء بالمدينة قبل أن يتعكر صفوها، بمنتصف نيسان ليلة عيد ميلاد عصماء أحضرت كعكة بالشوكولاتة، لم يتسنَّ لي صنعها بيدي، اتصلت بالحاجة نادية لحضور عيد ميلاد عصماء، وجاءت ومعها سيدة أخرى لا تشبها في ملامحها لكنها نسخة مصغرة منها لربما لأنها قصيرة وممتلئة بعض الشيء قالت إنها زوجة أحد الشيوخ وصديقة مقربة لها. اعتذرت عن انشغالها الفترة الماضية لأنها كانت تعمل في حملة الشيخ حازم صلاح الذي خرج من سباق الرئاسة، أخبرتنا الحاجة نادية بأنها تتلمذت على يد الشيخ في أحد مساجد منطقة الدقي بالجيزة، فهي تعرفه منذ سنوات.

- مشفناش منه إلا كل خير، ويستحق المنصب بجدارة، رجل ورع وثائر، كل اللي حصل مؤامرة من فلول النظام السابق واقفين ضد مصلحة البلد.

هكــذا تحدثت عنه، أمي لا تُعلِّــق، فقط تصدِّق على كلامها، ثم تحدثت السيدة التي جاءت معها عن رأيها في حفل عيد الميلاد وهي تأكل الكعكة وتشرب قهوتي.

- الاحتفال بأعياد الميلاد يا بنات تقليد غربي ومش إسلامي، نوع من البدع المضللة، اللي الرسول عليه الصلاة والسلام، نهى عنها أنتم محجبات وملتزمات في ملبسكم وعليكم الالتزام في جميع الطاعات. إن اللـه فضل المرأة المسلمة، وأن الأرملة واليتيمة لهما حق على المجتمع في الزواج والتستر عليهن.

ظلت أمي تصدَّق على كلامها، وهي تتمادى في خطبتها مثل الدروس التي تُلقيها في المسجد، أنا أيضًا لم أعلق أنني لا أعرف إن كنت استحسنت كلامها أم أنني أخشى الصدام، ولكن عصماء ردت عليها.

- يا خالة، عيد ميلادي مو بدعة ولاشـــي، نحنا منحتفل ســـنويًا بالمولــد النبوي، أما عن الســترة، وكلامك عن ســترتنا ما فهمت قصدك. شايفة شي فاضح لا سمح اللـه بدك نخبيه؟

انزعجت الحاجة نادية من كلامها، وهبَّت من جلستها، حاولت أمي تهدئتها، وقالت لها إن عصماء لا تعي ما تقول فهي صغيرة. هكذا عصماء لا تخشى الصدام، دائما تفعل ما يحلو لها وتقول ما تريد قوله، وتصمت حين تريد أيضًا، وبَّختها نادية مرة ثانية

أنها تجاوزت الأدب، عليها أن تعيد تربيتها وكيف تتحدث مع الكبار، ونصحتها أن تأتي للمسجد لترى كيف تبجّلها النساء، وظلت تصرخ...

- كنت تفضلي خرسة أحسن من أنك تكلمي معي بالوقاحة دي، انت ليه مش هادية زي أختك؟ بصي علي أختك بسم اللـه ما شاللـه عليها ألف مين يتمنها.

- (ردت أمي): روقي حاجة نادية، رب العالمين خلق أخين وما خلق طبعين.

***

مرَّ أكثر من عشرة أيام. الحاجة نادية لا ترد على اتصالات أمي، وظلت أمي توبخ عصماء لما قالته للحاجة نادية، حتى جاء لزيارتنا الشيخ طلعت، أعددت له القهوة التي أحبها الجميع من يدي، جلست معهما في بداية حديثهما قال لأمي:

- عرفت كل اللي قالته عصماء للضيوف، فين الأدب يا أم ظافر، كفاية حضور هم حفلة عيد ميلاد غصب عنهم، دول سيدات لهم من الفضل أكثر من المشاركة في البدع.

ظلت أمي تعتذر له عما بدر من ابنتها، وقال لها إنه يريد الحديث معها في أمر مهم، وطلب مني الانصراف، كنت قلقلة من شيء ما.. ابتعدت قليلاً لكي أستمع إلى حديثه ونيته.

- يا أم ظافر، أنا راجل متجوز اتنين وعندي أربع عيل، جوزت بنتي الكبيرة من شهر، لكن ربنا أمرنا بالسترة على الأرامل واليتامى، وانا الحمد للـه ربنا موسعها عليّ نفسي تفهمي قصدي كله بشرع اللـه، طلبي النسب والجواز واجب عليّ، احنا بنصلي الفرض لأنه فرض ونصلي السنة لوجه اللـه تعالي، وبنصوم أيام تطوع أسوة برسولنا الكريم وللتقرب من درجات الفردوس في الجنة بالطاعات والسنن.

- (امتعض وجه أمي كما تراءى لي من خلف الستار): شيخ طلعت، شو هل حكي يلي عم اسمعو، عندي بنتين بسن الزواج، وولد بسورية مستحيل يرضى علي أمه انها تتزوج بعد ابوه اللـه يرحمه.

- أم ظافر، انت ما فهمتيش قصدي، أنا مش طالب الجواز منك، أنا طالب إيد الآنسة جيداء.

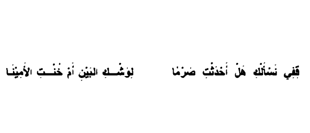
***

تركها في حيرة من قوله، وأنا تجمدت في مكاني ولم أنطق، غصت أمي في قلبها ولم تقل لي بما دار بينهما، وبت ليلتي أحدق في العتمة، كأنه وضع رقبتي أسفل مقصلة القرار، كانت عيناي تدمعان تتساءلان: إلى أين؟! وصوب أي بقاء؟! كيف لي أن أغفو على وسائد أحلامي الحريرية وهو لم يزرني يومًا في المنام؟! اكتشف في تلك الليلة حقيقة الأمر، مانسيت أحلام الصبايا، لكن أدركت أننا ملك اليمين من السبايا المنسيات والهلاميات.

أخبرت ظافر بكل ما حدث معنا من يوم عيد ميلاد عصماء والحاجة نادية وغيابها. ثم مجيء الشيخ طلعت وطلبه الزواج مني، اتصل بأمي وصرخ عليها، ألا تتردد في رفض طلب الشيخ. قلت له، كيف أرفض بسهولة؟ أفضاله كثيرة علينا، وأهمها الشقة من دون إيجار والمعاملة الحسنة. ويجب أن نتأنى في الرفض، أنا لا آمن رد فعله، عليك أن تأتي لنجدتنا، ظل يتحجج أنه بحاجة للبقاء في سورية، لحين استقرار بعض الأوضاع، وأن إدلب انتقلت إليها ساحة الحرب أي سورية تريد البقاء فيها؟

تشاجرت معه أنا بعدها، تساءلت كثيرًا عن معنى الوطن، هل هو المكان الذي ولدنا فيه؟ أم أنه شيء ما يكبر داخلنا ليسيطر على أفكارنا؟ أم حين نجد أنفسنا نجد وطننا الحقيقي؟ لم يكن جدالا فلسفيًا لكن هكذا تحدثت مع نفسي، ونبرات صوتي ارتفعت إلى صراخ وعويل الغريق.

في منتصف حزيران. أُعلِنَت نتائج انتخابات الرئاسة المصرية فاز الرئيس محمد مرسي مرشح الإخوان المسلمين. انتهت المهلة التي أعطاها الشيخ طلعت لأمي ولي للتفكير في أمر الزواج منه، بعد أن رفضت طلبه قبل شهر ونصف الشهر، فاتصل بنا مجددًا، وتأكد أن موقفي لم يتغير في رفض طلبه، فأرسل لنا سيدة تطلب منا إخلاء الشقة في خلال أيام لأن الشيخ سيتزوج فيها قريبًا، وأنه وفَّر لنا مسكنًا آخر بالحي السادس. وطلب من عصماء على وجه الخصوص، بأن تترك اللاب توب لأن الشيخ يحتاج إليه.



قِفِي نَسْأَلْكِ هَلْ أَحْدَثْتِ صَرْمًا   لِوَشْكِ البَيْنِ أَمْ خُنْتِ الأَمِينَا



مساكن عثمان وأيام مساكن عثمان، انقطع كل شيء حياة الترف والأبهة لحيـــاة التعب، لكن كنت أحمد اللـــه كثيرًا أنها أفضل من المخيمـــات الحدودية، وثمن الشـــقة غالي، اعتمدنـــا علي الجمعية الشـــرعية في كل شـــيء، تعرفنا علي الطوابير ، كنت أترك مهمة الذهاب إلي الجمعيـــة لعصماء، ولكن في اليوم الذي قابلت الحاجة نادية هناك تركت السـلة بجوار الباب وظلت تبكي وتقسم أنها لن تذهب لتشحذ من الجمعية الشرعية مرة أخري، مذ ذلك الحين أدركنا أن الاعتماد على الجمعية أصبح أمرًا غير مجدٍ، تعرفت أمي على جيران جدد من المصريات والســوريات أيضًا، وأهمهن أم عزيز ، كانت تسـكن بالشـقة المقابلة لنا، زوجها كان يعمل سائقًا بالأجر على ســيارة رجل مصري، لديها ولدان وبنــت متزوجة وذهبت مع زوجها إلى الســعودية قبل اندلاع الأزمة بســنوات، واعتادت أم عزيــز علـــى زياراتها هناك لكن مع بداية الأزمة الســورية لم تعد باستطاعتها زيارتها، ابنها الآخر حاصل على مؤهل متوسط يبيع خبزًا في منطقة مساكن عثمان ومنطقة بيت العائلة، والصغير

عزيز ترك مدرسته والتحق بمدرسة في مدينة السادس من أكتوبر في عامه الأول، وفي العام التالي لم يستطع الالتحاق بالمدرسة، نظرًا لانتهاء جواز السفر الخاص بوالده ولم يستطع تجديده في بداية العام الدراسي.

أم عزيز كانت الأقرب لنا، وكانت تزورنا باستمرار وتحكي لنا عن الحي وسكانه، ساعدت أمي في الاعتماد على نفسها، باعت لها سلسلة ذهبية، وبدأت أمي مشروع إعداد أكلات سورية رمضانية. كم كان مؤلمًا أن تعد الكبة لتبتاعها إلى سكان الأحياء المجاورة بدلًا من إعداد مائدة رمضانية، انهمكت معها في العمل وتعرفت على المنطقة أكثر بأسواقها الرخيصة وبائعي الخضراوات الطازجة. كان الخروج ليلا أمرًا مستحيلًا، إذ ينتشر في هذه المنطقة البلطجية وتجار المخدرات. كنا نقضي ليالي رمضان في إعداد الأكلات وتحضيرها، ومشاهدة المسلسلات التليفزيونية مع أم عزيز.

بمنتصف شهر رمضان وقعت حادثة مقتل 16 مجندًا من الجيش المصري بمنطقة رفح الحدودية بسيناء، فأطاحت بقادة المجلس العسكري الذي حكم البلاد بعد رحيل مبارك لمدة عام ونصف العام. كان ذلك في شهر آب أول زيارة لباسل صديق ظافر الذي جاء لزيارتنا والتعرف إلينا، وتناول الإفطار معنا. شاب وسيم ومرح يكبر ظافر بثلاثة أعوام، تخرج في جامعة دمشق الدولية في كلية الهندسة المعلوماتية، درس بقسم هندسة البرمجيات.

إن اتصل به ظافر وأخبره بما حدث معنا، ووعده باسل أن يكون عونًا دائمًا عند الحاجة.

ظل يحكي لنا عن بيته بمنطقة المزة بدمشق وعن والده الثري تاجر السيارات وأخته الصغيرة. ترك عائلته بالشام، وعمل في محل لبيع إلكترونيات في مول العرب بالقرب من ميدان جهينة، واستأجر شقة مع صديق له بمنطقة الشيخ زايد، تجنب الحديث عن السجن والاعتقال، واختفائه في أواخر رمضان الماضي، فاحترمنا رغبته في ذلك، تركنا على وعد منه بالمجيء لنا للاطمئنان علينا دائمًا. طلب منا ألا نذهب إلى الجمعية الشرعية مجددًا، فقد سمع كثيرًا عن الشيخ طلعت، وأخبرنا بأن نساءً سورياتٍ أيضًا متورطات في زواج لاجئات من أثرياء مصريين وعرب.

توطدت علاقة أمي بالجيران أكثر وذاع صيتها، وشهرة أطباقها الشـهية، فجاءتها إحدى الجارات تطلـب منا إعداد إفطار عزومة وجنت منها مالًا كثيرًا، اشـترت به أدوات جديدة لمسـاعدتها في عملها الجديـد مثل بعض الطناجر والسـكاكين بأنواعها، حاولت مـرارًا الاتصـال بظافر للاطمئنـان على حاله، لكـن مع نهاية رمضان انقطعت أخباره، حتى جاءت لنا زيارة عريس جديد ولكن لعصماء.

***

تعلقت بباسل منذ زيارته لنا، شعور غريب وقوي يدفعني أن أكون بقربه طوال الوقت. كنت أذهب للتسكع في المول، وأمر عليه وهو يعمل فيحسن استقبالي. في إحدى المرات كنت وحدي، قلت لأمي أنا ذاهبة لشراء خضراوات من منطقة دولسي، لكن عصماء أصرت أن تأتي معي، قلت لها أنني بحاجة لرؤية باسل، قبلت عزومة منه على وجبة سريعة في ساحة الطعام، رفضت عصماء وقالت أنها ستذهب لشراء حلوى، حقًا كنت في حاجة لمساعدته.

- نحنـــا كتيـــر قلقنين على ظافـــر لا حس ولا خبر من شـــي عشرتيام.

- وحيـــاة أغلى شـــيء بالدنيا، لـــح اعمل كل مـــا فيني لحتى اوصله.

- خايفة كتير يكون متورط بشيء مع قوات الجيش النظامي.

- وأنا متلك، قلبي مو متطمن، العمل بالبرمجيات كتير خطر.

- هو ترك البرمجة باسل من فترة، اللـه يستر طريقه.

تكلمت مع باسل عن الشك الذي تملكني، من تورط ظافر مع بعض عناصر الجيش الحر والتي سهلت لنا الخروج من إدلب إلي حدود تركيا، حاول أن يطمئنني أنها مجرد شكوك، وأن ظافر

ليس بهذا الغباء ليتورط مع الجيش الحر في عملياته ضد الجيش النظامي.

***

جاءت الحاجة نادية للعزاء، جلست تواسي أمي، لم تخرج عصماء من الغرفة لمقابلتها، ثم جاءت بعد يومين جاءت مرة أخرى مع أسامة، أحضرت لنا جميع متطلبات المنزل، لكن عصماء رفضت الخروج من الغرفة ومقابلته برغم إلحاحها لمقابلة العريس، دخلتُ مع نادية إليها:

- البقاء لله، لله ما أعطى ولله ما أخذ.

لم تعلق عصماء، ورمقتها بنظرة تعني النفور من وجودها.

ظلت تقول لها أنتِ مثل ابنتي يا عصماء، إن العريس في الخارج ينتظرها، أسامة شاب تتمناه أي فتاة، وأنت بحاجة إلى زوج ليكون لك سندًا وعونًا، وهو لا يمانع من أن تكملي دراستك الجامعية، وسوف نتكفل بفرش البيت بالكامل.

احتقنت من كلامها، عريس في واجب العزاء، نادية لا تضيع الوقت أبدًا ظلت تتحدث معها عن الزواج والحياة والإيمان والصبر،

لا أدري كم من الوقت قضيته بجوارها، عندما خرجت نادية لم ألحق بها تسطحت على الأرض، نمت لساعات، وربما لأيام، كنت مشفقة عليها، وحاولت إقناع أمي أن زواج عصماء ظلم بين لها، وأن أسامة لن يختلف عن الشيخ طلعت في شيء وعلينا الإصرار على الرفض.

***

رغم الأحـداث المتلاحقة، وأننا لم نفق بعد من خبر استشـهاد ظافـر، الدقائق صارت تمر مثل الدهر، وذات صباح جاء أسـامة ومعه عمـال كثيرون دخلوا مثل جنود الاحتلال، واقفنا في صمت تـام وكأننا تجمدنا في المكان، وكأن الاعتراض أو المقاومة يخيان إطلاق الجنود الرصاص الحي، كانوا يحملون أثاث غرفة نوم كاملة: سـرير ودولاب ومرآة وشماعة ملابس وسجادة وستائر ومفارش، وسرير آخر للغرفة الثانية، وغسالة نصف أوتوماتيك. في غضون سـاعة انتهى الجنود من المهمة المكلفين بها وقبل أن يغادر أسامة قال أعدك يا أم عصماء أنني سأكمل فرش البيت قريبًا.

- (ردت أمي بحزم): عصماء مريضة.

توقفت عن الرد على اتصالات باسل، في منتصف تشرين الثاني، أرسلت له رسالة أنني لا أريد رؤيته مرة ثانية وأن يتوقف عن الاتصال بي مجددًا ولا يسأل عن الأسباب، هددت نادية بطردنا من

الشقة، ومنعنا من دخول الجمعية الشرعية وقطع كل المساعدات، حتى عندما شكونا لأم عزيز اقترحت أن أتزوجه أنا ومع الوقت أضمن إقامة في مصر دائمة، وشجعت أمي على إجباري على الموافقة فبعد موت ظافر صار الرجوع إلى سورية جحيما ليس فقط مستحيلا.

بعد يومين فقط جاءت إلينا الحاجة نادية تحمل عباءة بيضاء وطرحة بيضاء وشنطة سفر، أمي وبجوارها عصماء تشاهدان دون تعليق، قالت لي أحضر نفسي لأنها جاءت لتصبحني إلى أحد صالونات التجميل وأنها سوف تنتظرني في السيارة، لكن قبل أن تغادر التفت إلى أمي، وقالت بحزم شديد عقد القران غدًا بعد صلاة العصر، ستنتظركن سيارة الشيخ طلعت أمام العمارة.

فتحت الشـنطة وجدت داخلها ملابس نوم ومسـاحيق تجميل، أفرغتها على السرير وأرتميت فوقها بكيت وبكيت وبكيت لا أدري كم من الدموع تسـاقطت، جاءت أمي من خلفي وسـاعدتني على النهوض، احتضنتني ومسحت بطرف طرحتها دموعي المنهمرة، قالـت لي أمي أنها هاتفتها بالأمس، وهددتها بكلام موجع وفاحش، ثم فتحت كف يدي وضعت لي شريطًا من أقراص.

- شو هاد؟

- هاد بتاخدي منه حبة كِل يوم.

***

قبيل أذان العصر أرسل الشيخ طعامًا جاهزًا قال السائق لنا إنه هدية العروسين، كانت العروس جاهزة وفي انتظار مصيرها، ذهبنا إلى مسجد الخلفاء الراشدين، ودخلنا القسم المخصص لصلاة السيدات، أقيمت الصلاة وجاء صوت الشيخ طلعت، يقرأ القرآن في خشوع، لندرك أنه إمام المسجد والجميع يصلي وراءه، كبر للركوع فركعنا، سجد فسجدنا، لكن سجدتي طالت وما عدت أسمع تكبيرة الاعتدال، ولم يكن لدي من الدعاء ما أقوله، لكن دموعي التي غمرت موضع جبيني كانت كفيلة بكل رجائي، فقط أصدر صوت همهمة متقطعة للرجاء إلي الله.

خرجنا واتجهنا نحو الجزء المخصص لصلاة الرجال، لم تكفِ مناديل نادية لإزالة دموعي، عندما غمرت الدموع الجفون صارت الرؤية مشوشة، مثل ضوء كشافات سيارة آتية من بعيد في طريق مظلم، لا يمكن تحديد شكلها، ولكن وميضها يؤلم العين، جلس المأذون والشيخ طلعت وأسامة بجواره وآخرون لا أذكر ملامحهم هم أهل أسامة جاءوا من الفيوم لحضور مراسم الزواج، وضعت يدي في يد أسامة، فقد أتممت الحادية والعشرين في تموز الماضي، المأذون يتكلم لا أسمعه، ظل يسألني وأنا لا أرد حتى قامت نادية وهزتني للانتباه.

- هل تقبلين أسامة زوجا لكِ؟

- (بصوت متهدج ممتزج بنحيب): نعم أقبل.

***

بين أن تصبح قصةً قديمةً، هاجرت عنها شخوصها، أو تبدأ بداية جديدة، دخلت إلى غرفتي، اقترب مني أسامة واعتذر لي، رفع عن عيني غرتي، واحتضنني، أكره صوته الذي يهمس في أذني، ولا أسمع سوى صراخ باسل وصورته تتلاشى شيئا فشيئًا، وعيناي تتطلعان إليه وهو يبتعد، وتغلق نادية الباب في وجهه ويبتعد صوته أكثر، ويختفي وقع خطواته على الدرج، تخنقني أنفاسه وأشعر بالتقزز من ملمسه وهو يقبل جبيني ثم خدي المتورم، لكن الشيء المؤكد أنه لا يضر الشاه سلخها بعد ذبحها.

مرت أوقات صعبة وتمكن الحزن من أمي، ما عادت تقوى على العمل. عصماء عادت للصمت من جديد، ما عادت تتحدث على الإطلاق، وبات من الرفاهية الذهاب إلى الدكتور، توليت مهمة إعداد الطعام، خصوصًا لزوجي الذي صار مسئولًا عنا، أسامة كان يتعامل معنا على أنه الوصي علينا، لا نخرج وندخل إلا بإذن منه، في منتصف كانون الثاني، جاء إليّ أسامة يزف لي خبرًا جديدًا من أخبار الحاجة نادية.

- قابلت النهاردة الشيخ طلعت، كلمني عن عريس لأختك عصماء، هو عنده استعداد يتكفل بمصاريف علاجها، حتى لو هيسافر بره، دا راجل سعودي غني.

- عصماء لساتها صغيرة ليش لتبلش حياتها مع زلمة سعودي بس لانو معو شوية مصاري واكيد زلمة ختيار مهر هر متل طلعت، شي من الرحمة يا أخي.

- (أمسك ذراعي ونظر في عيني بحقد): أنا بقول لك عريس غني لأختك، تقول لي الرحمة، أنت مجنونة؟ دا عريس هيصرف عليكم.

- (نظرت له باحتقان) متل ما انت تزوجتني مشان تصرف علينا، ومشان تكمل نصف دينك، ولا مشان تنفذ أوامر الست نادية والشيخ طلعت.

- أنـــا مش هــــرد عليكي، قبل مــــا تنامي حضري لي شـــنطة سفري.

استحلفته بألا يتكلم معها في هذا الموضوع مؤقتًا، قمت باستغلال هذا الموقف وأعلنـــت غضبي منه حتى يبتعد عني، لكن في حقيقة الأمر أنا سعيدة لأنه مسافر لعدة أيام، نام مبكرًا نمت أجمع مشاعر الغضب المرتبطة بوجوده، وسعادة طالب في انتظار انتهاء الحصة الأخيرة قبل إجازته الأسبوعية، لذا نمت في راحة، لكني استيقظت باكـــرًا على جـــرس هاتفي، كان رقمًا من ســـورية، انقبض قلبي، نظرت جواري وجدت أســـامة مســـتغرقًا في نوم عميق، أخفضت صوت الجرس وخرجت من الغرفة لأرد على الهاتف:

- صباح الخير، أنا خاطر، كيفك؟ بعرف أني مقصر كتير معك، باسل حكالي على كل شيء، متوتر ومالي عرفان شو بدي احكي.

- خاطر لا تحكي شيء، الحمد لله أنا بخير.

- جيـداء، عندي خبر مو لطيف، أيهم استشـهد بانفجار جامعة حلب قبل يومين.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

أغلقت الخط والخبر يعتصرني ألمًا، فتحت باب الغرفة، أسامة ما زال نائمًا ولم يشـعر بخروجي مـن الغرفة، نظرت إليه، بدأت بالفعل أتعود عليه وعلى وجوده جواري، أغسـل ملابسه وأكويها وأعلقهـا في الخزانة، أطبخ طعامًا شـهيًا يعجبـه، لا أتحدث معه كزوجين، دائمًا هناك شـيء يمنعنا من التواصل، سئمت من أداء دوري في مسلسـل الزوجـة المثالية، خاصة أن أدائـي التمثيلي غير مقنـع، عندما أدخل غرفتي ويطوقني بين ذراعيه وأكون بين أحضانه، وأشـعر وكأنني أدخل زنزانة ضيقة لحبسي الانفرادي، لكن تعلمت أن حياة السـجناء هي أنهم يبقون على قيد الحياة، لكنهم موتى في حقيقة الأمر يتنفسون فقط أغلقت باب الغرفة.

أعددت له الإفطار ثم أيقظته، خرج يتناول إفطاره وحده، دخلت الغرفة أعددت له شنطة سفره كما طلب مني، قال لي إنه مسافر

إلى أهله في الفيوم وسيعود بعد يومين، أخبرته بمكالمة الصباح، طلبت من يطرق بابها ليطمئن عليها.

سافر أسامة ولم أهتم بوداعه ادّعيت انشغالي في أعمال المطبخ، فور خروجه لاحقته بالنزول، قلت لأمي إني ذاهبة لشراء بعض الخضراوات اللازمة من السوق، من لحظة ما أغلقت الخط مع خاطر صباحًا، حين نطق باسم باسل، ولم أفكر سوى أنني اشتقت إليه وأريد رؤيته ولو من بعيد، شيء ما يشعرني بأن قلبي ما زال ينبض، لأستقل أول ميكروباص متجها إلى جامعة مصر، ثم عبرت الطريق إلى مول العرب، بحثت عنه داخل المحل الذي كان يعمل فيه، وقفت أنظر إليه من خلف الزجاج وهو في الداخل وأنا في الخارج، لمحته يتحدث مع أحد الزبائن، انتظرت حتى انتهى وكان وحده، ودخلت ووقفت أمامه، ظل ينظر إليّ في دهشة، ثم استأذن وذهب معي إلى ساحة الطعام:

- بعرف انك ماتك طايق تشوف وشّي.

- (صمت قليلًا) جيدا، كل يلي كنت عم اعملو لنفذ وصية أخوكي الله يرحمه.

- بترجاك لا توقف وخليك عم تنفذلو ياها.

- انت متزوجة هلأ وبتمنى لك من كل قلبي تكوني سعيدة.

شرحت له ما حدث وكيف اُحتلَّت الشقة بالأثاث، وأنني ضحيت من أجل عصماء، شعوري الدائم أنني سجينة. وكم أكره زوجي وأتمنى الخلاص، ولا يمكن أن تستمر الحياة هكذا، وأمي صارت عاجزة بعد موت ظافر، وعصماء تقدم لها عريس سعودي من طرف الشيخ طلعت، ولم يعد لديها قوة على الرفض، تركتها في الصباح غارقة في دموعها بعد موت أبيهم، وبكى بعد ما حكيت له علاقتنا بأبيهم وأنه مات في التفجير قبل يومين.. خسارة إنسان آخر لم يعرفه لكن صديق ظافر، فقط علق:

- كيف بتتزوج من سـعودي، والقانون يلـي كان بيمنع زواج السوريات من السعوديين من أيام حافظ.

- يعني باسل بذمتك، مو هاد المانع الوحيد؟ عصماء لساتها قاصر.

صمت طويلًا، ولم يبد أي تأثر بما سمع، فهممت بالقيام سواء بمصيبتي أو ما سيحل بأختي، تركته جالسًا وابتعدت قليلًا ثم التفت إليه مرة أخرى وأردفت قائلة له:

- باسل، ممكن تفهمني شو هل التعقيدات، يعني انو تكون انت وهل زمن علينا، محتاجة مساعدتك لأخلص من هل جبان.

- وهل جبان وينو هلأ؟

- مسافر، لح يرجع بعد يومين.

- (صمت قليلًا، ثم أمسك يدي) استنيني المسا، لح اجي لعندكن وسلميلي على خالتي وعصما كتير.

***

في المساء جاء إلينا باسل، كما وعدني، جلس مع أمي شرحت له الوضع وقلة الحلية والاحتياج والمعاناة التي أشعر بها تجاه أسامة، ولا نعرف كيف السبيل إلى الخلاص؟ ظل يستمع إليها، وبدأ يشعر بحجم المصيبة التي وقعت بنا، ما عاد يجدي العتاب أو حتى الشفقة، وكأن هذا الحمل وقع على عاتقه وحده، هو قدره ولا يمكنه الفرار منه:

- خالتي أم ظافر، ضبي غراضكن كلها الليلة، الفجريات لح مر أخدكن.

- شو عم تحكي ياباسل؟ وزوج جيدا؟

- لما يرجع وميلاقي حدا منكن، وهي تطلب منو الطلاق وتصر على موقفها، ساعتها هو لا لح يعرف وينكن ولا لح يعرف يوصللكن.

عندما غادر كانت الساعة العاشرة مساءً، تركنا في حيرة، هل

حقًا حان وقت الهروب من هذا السجن، تركت أمي وعصماء في دهشتهما، ودخلت إلى غرفتي وتركت بابها مفتوحًا، في دقائق معدودة، سحبت شنطة جمعت فيها كل ثيابي، ثم حملتها ووضعتها بجوار باب الشقة وهما ينظران إليّ، وأنا غير مهتمة بوجودهما في محيطي، أتحرك بسرعة وكأنني في ماراثون وأريد الحصول على اللقب الأول، اتجهت إلى المطبخ، وعدت مرة أخرى وفي يدي سكين، لم أعبأ بنظرتهما المتتبعة، سحبت وسادتي ومزقتها بالسكين فتناثر القطن الساكن داخلها في الهواء وعبأ المكان، دخلت إلى أمي وحاولت إمساك السكين من يدي، قلت لها في حزم وغضب: "إذا لم تتركيني في حالي، سأقتل نفسي، ابتعدي عني أرجوكِ".

بعثرتُ ثيابه المكوية في أرجاء الغرفة، ثم ألقيت بكل ما تبقى في الخزانة فوق السرير، وبسكيني مزقت ملابس النوم التي أهدتها إليّ نادية في تلك الليلة المشؤومة، انهلتُ عليها تمزيقًا حتى أصبحت قطعًا صغيرة، وقفت أمام المرآة أنظر بزهو وفخر لما فعلت، ألقيت بكل مساحيق التجميل على الأرض، ثم أمسكت بزجاجة عطره التي تركها، قذفت بها المرآة، ونظرت إلى نفسي في المرآة بعد تحطيمها وجدت صورتي متكررة على كل أجزائها المتناثرة، وفي نهاية المعركة غرست السكين في منتصف وسادته، وأغلقت الباب خلفي.

***

أغلقــت هاتفــي المحمول، وظلت أمي لا تــرد على اتصالات أســامة، واضطر باسل لأخذ إجازة من عمله، حتى لا يوجد داخل المركز التجاري، فهم يعرفون أنه يعمل هناك، وظل بجوارنا تحسبًا لحدوث أي شــيء، أمي كانت على اتصال دائم بأم عزيز تطالعها الأخبار، عرفت منها أن أسامة عاد من سفره وظل يصرخ بصوت مرتفع، وطرق عليها البــاب، متوعدًا بالانتقام، لكن نادية لم تيأس من الاتصال بأمي وقالت لها:

- جيداء ناشز ملهاش حقوق لا مهر ولا نفقة، ارجعي يا هند وهادخل واخلي أسامة يسامحها.

- حاجة نادية، قلت لك، هي ما في علي لساتها غير الطلاق، كفو شركن عنا؟

- نكف شرنا عنكو، هو دا رد الجميل، بكره تندمي يا هند.

هكذا كان حديثهما، عراك دائم، ونادية تزداد عندا وجبروتا، بعد مرور نحو عشرة أيام، اتصلت بنا أم عزيز، تخبرنا بأن الشقة أخلاها أسامة وسلم مفتاحها للمالك، شعرنا براحة بعض الشيء، كانت الأوضاع في مصر في غاية السخونة، معظم القوى السياسية، تحشد للنزول في الخامس والعشرين من يناير، كنا نتابع الأحداث عبر القنوات المحلية المصرية، عاد المصريون مرة أخرى للنزول بنفس الشعار وكأن شيئا لم يكن - الشعب يريد إسقاط النظام -

نفس حالة الاحتقان من السلطة الحالية، مع سقوط شهداء جدد في الأحداث التي شهدتها الشهور الماضية، أما الوضع في سورية فأصبح قاتمًا لدرجة عدم فهم ما يدور هناك.

صديق باسل غادر المنزل لفترة مؤقتة، حتى نشعر براحة أكثر، اعتادت عصماء أن تجلس في الشرفة باستمتاع، وكان في كثير من الأحيان يجلس باسل بجوارها يطالع صفحات الإنترنت والأخبار هنا وهناك، وكنت دائمًا أعد الحلوى في المساء، ذات ليلة احتد الخلاف بيني وبين باسل، دار نقاش وحديث دون الاهتمام بوجودي، كان وجهه دائمًا يتحاشى النظر إليّ، وقال لي وشاشة الهاتف صوب عينيه:

- الأوضاع بسورية مو واضحة، شي جيش النظام يلي بيسند بشار، وميلشيات متفرقة، المنشقين للجيش الحر، وجبهة النصر وهدول يلي اسمهن الدولة الإسلامية، الله بيعمل لوين لح نوصل.

- باسل، بتعرف انا ما عم فكر ارجع أبدًا.

- (نظر إليّ): ليش انت كنت عم تفكري ترجعي لزوجك؟

- انا قصدي لسورية، وبعدين عمري ما اعتبره زوجي.

- (صمت ونظر إلى عينيّ): جيدا، الظروف اختلفت، لو انت مو حابة ترجعيلو ، فانا برأي بلشي دوري على شغل، انتي لازم

تحاولي تعتمدي على نفسك اكثر، معلش لا تزعلي مني بس انتي مافي حدا سند لالك على الاقل لهلأ الطريقة الوحيدة انك تشتغلي.

***

انتقلنا إلى شـقة جديدة بمنطقة بيت العائلة فـي الجهة المقابلة لمسـاكن عثمان بالحي السـادس أيضًا في منتصف شباط كانت البنايات غير مرتفعة، معظم سـكانها من السـوريين، الشـوارع منظمة أكثر، توجد بين البنايـات حدائق يلعب فيها الأطفال، على عكس مساكن عثمان المياه متوفرة طوال اليوم، ساعدني باسل في إيجاد عمل في نفس المركز التجاري الذي كان يعمل فيه، الشـيء المميـز أن حي بيت العائلة أكثر أمانًـا، خصوصًا أنني أعود من عملي في أوقات متأخرة بعد العِشـاء أحيانًا. الأهم أننا تخلصنا من رحمة الجمعية الشـرعية في دفع إيجار الشقة القديمة، جماعة من السوريين يدبرون أمر الإيجار.

كل صباح كنت أخرج إلى عملي مرتدية عباءة سـوداء وفوقها طرحة سـوداء كبيرة تغطي معظم ملامح وجهي ونظارة شـمس كبيـرة، عملت بائعة في محل لبيع ملابس نسـائية للنوم والملابس الداخلية، فور دخولي إلى المحـل أتجه إلى غرفة تبديل الملابس. لأرتدي الزي الخاص بالعمل (بنطلونا وقميصا وطرحة صغيرة)، مديرة المحل المصرية شـديدة في التعامل والانضباط والمواعيد،

لكنهـا كانــت تحبني وتعاملنـــي بلطف، ربما كانت تشــفق عليّ، كنت أقضي أوقات الراحة مع باســل في ساحة الطعام في المركز التجــاري، أهدى لي رقمًا مصريًا جديــدًا و هاتفًا من الفئات الذكية الرخيصة نســبيًا، كانت هناك حالة من الراحة رغم أنني ما زالت في عصمة رجل آخر.

ذات يــوم دخل المحل زبائــن، أدركت أنها عــروس كمعظم الزبائن، كان معها عدد لا بأس به من الصديقات المزعجات، بدأت العروس في تقليب كل شـــيء، كانت تريد شراء مستلزمات الفرح، وملابس لشهر العسل:

- اسمها ايه في سورية؟

- نحنا نسميها ملابس تفريعة.

- (ضحكت مازحة): ايه تفريعة؟ اديني فرعين الأزرق والأبيض من نفس مقاس الأسود.

كانت عروسًا جميلة ورقيقة بدرجة مختلفة عن ذويها المرافقات لها، شعرت معها بانسجام نفسي مريح، تسلل إلى روحي شيء من الحسرة ذكرني بما حدث، ذكرني بتلك الشنطة اللعينة، وتمزيقي كل ما ارتديته يومًا رغمًا عني، تذكرت ملمسها علي جسدي، تذكرت اغتصابي ليلة زفافي، في أول أيام دخلت فيها المحل كنت أتلمس ملمس الملابس الحريري الناعم وأنواعه الفخمة المطقة

بعناية، تعكس روعتها المرايا والإضاءات، كان ما حولها طوال الوقت يزدني ألمًا وحسرة.

رغم انزعاجي من صديقاتها وتدخلهن المفرط في ذوقها في كثير من الأحيان، لكن الضحكات والنكات البذيئة التي أطلقتها ملأت الجو بالمرح، كانت تضحك معهن، يتحدثن عن شهر العسل والسفر، وأنا أضحك بصوت الأنين، ثم ركزت في النظر إلى عين العروس التي تلمع من الفرحة، اشترت أغراضًا كثيرة، ودعتها بابتسامة ووضعت في يدي بقشيشا عشرين جنيهًا، كان أول بقشيش اتقاضاه منذ بدء عملي الجميع يدخل ويخرج دون النظر إليّ، على الفور ذهبت إلى ساحة الطعام واشتريت حلوى واتصلت بباسل:

- انت وين؟ انا بهاد المكان تبع المطاعم، ليك مو بكيفك انا عازمتك يلا عم استناك

على الرغم من أن وجود أسامة صنع حاجزًا نفسيًا بيني وبين باسل، خصوصًا أنه لمح لي كثيرًا أن ما كان يمكن حدوثه في الماضي، ليس له مكان في المستقبل، كان أسامة دائمًا يقف حائل بين أحلامي والواقع الذي أعيشه، فلا أتعشم فيه أكثر من اللازم، كنت لا أكف عن التفكير في الخلاص من الماضي البغيض، لكن قلبي كان دائمًا يخونني ولا يتوقف عن حب باسل، وقوفه الدائم إلى

جواري كان يطمئنني بأن الحياة ما زالت تهدينا أملًا نعيش من أجله حتى لو كان هذا الأمل ضعيفًا.

***

بالرغم من ذلك تغلبت على هذا الحاجز، خاصة بعد انضمام عصماء للعمل معي، توسطت لها على أن تقوم بأعمال النظافة وترتيب الأغراض.. رحبت بها مديرة المحل، تعاطفت معنا، كنت أتركها كثيرًا وحدها في المحل وأذهب للقاء باسل، تعرفت سريعًا إلى صديقتها سلمى ممثلة المايم وصديقها كريم وصار لنا أصدقاء في مصر، نخرج معهم نتشارك معهم الأحزان والأفراح وخاصة بعدما تعرفنا إلى عمرو صديق كريم يوم عيد ميلاد عصماء، نسيت كل الألم الذي مر بي في شقة مساكن عثمان، كنت أتذكر أسامة كأنه شبح وأتحاشى الكلام عنه، وأوبخ أمي إذا ذكرت اسمه أو اسم نادية أمامي، هكذا كنت أن أنسى، أقضي معظم النهار مع باسل، وفي الليل نتحدث عن كل شيء حكيت له بعض من عذابي، وأني لم أدرك مدي حبي له وأنا أسمع صوته يومها يبتعد بخطوات نزوله الدرج، كان يعدني أنه سيفعل كل جهده ولن يخزلني أبدًا لأتخلص من أسامة، بكيت يومًا علي صدره وضمني إليه.

لكن هذه السعادة لم تدم طويلا بعد أن أنستها وأعتد عليها،

فاجأتنا الحاجة نادية بالزيارة، لم تصرح لنا أبدًا كيف عرفت طريق مسكننا الجديد، حاولت إقناعي بالعودة وأن أسامة رافض لفكرة الطلاق، حاولت أنا أقنعها بأن عودتي إليه باتت مستحيلة قالت بتهكم ووعيد...

- مش حرام لما واحدة متجوزة والمفروض وانها متحرمة ترافق راجل تاني.

انزعجت أمي من طريقتها وقالت لها...

- هي بنتي وانا بعرف شو مربية، وبعدين حاج تدخلي بشي ما عاد يخصك ما بيكفي يلي اجا من ورا راسكن.

ولمحت أنها تعرف كل شــيء عنا ولم نغب عن عيونها لحظة واحــدة، رغم أننـــي مازالت أخرج متخفية، وبدأت تعاير بحســن استقبالنا ونحن لم نقدر النعمة، فور مغادرتها المكان اتصلت بباسل حكيــت له كل ما دار، نصحني بألا أخفي وجهي مرة أخري، وأنه في خلال يومين ســيدبر لنا مكانا أخر بجواره في منطقة الشــيخ زايــد، أو خارج مدينة أكتوبر بالكامل، وســيحاول الوصول لحل مع الجمعية الشــريعة والشيخ طلعت وربما يحاول الاتصال لطلب العون من المفوضية إذا لزم الأمر.

***

بعدها بيومين تحديدًا في السـادس عشـر من حزيران، ذهبت فـي الصباح إلي العمل مع عصماء، هاتفني باسـل ليلتها وقال لي إنه سـيأتي في المسـاء لنذهب معه إلى شـقة دبرها لنا مع عائلة سورية في الشيخ زايد، ونحن سنكون في حمايتها، دبرت الأمر مع مديرة المحل أنني مضطرة للاسـتئذان قبل نهاية دوامي، خرجت مـع عصماء عبرت معها الشـارع لتسـتقل مكيروباصا من أمام جامعة مصر إلي ميدان التحرير للقاء سلمى، طلبت منها ألا تتأخر لأن باسـل سيأتي في تمام الثامنة.. لن نخلي الشقة بالكامل سأجمع أغراضنا الأساسية.

اختفى الميكروباص ومشيت على قدميّ قليلًا، ثم عبرت الطريق مرة أخرى باتجاه المول التجاري، كانت بجواري سيارة تتبعني وفجأة خرج منها رأس أسامة...

- أنتِ مروحة بدري ليه يا جيدا؟

فزعت من صوته، أوقف السيارة، ونزل منها وطلب مني أن أركب معه لنتفاهم، رفضت.

- أسامة اتركني بحالي، ما عاد في شيء نحكي فيه.

- لا فيه شيء نحكي فيه، في حاجات كتير يا ست جيدا منها انك نسيتي انك لسه مراتي.

حدث كثير من الشد والجذب في الحديث بيننا، وانتهي الأمر بمشاجرة، سحبني من يدي وغصبني أن أركب معه السيارة، قذفني بالداخل وجلس بجواري في المقعد الخلفي.

وصلنا إلي بناية بجوار مسجد "عماد راغب" تذكرت أنها كانت ضمن بنايات الجمعية الشرعية التي عرضها علينا سائق الشيخ طلعت، سحبني مرة أخرى خارج السيارة، ثم طلب من السائق أن ينصرف، لم تكن سيارة طلعت، لكن سمعته يقول ليه بلغ سلامي للشيخ طلعت حتى ألقاه.

لم يكن لدي خيار أخر سوى أنه أمسك بيدي وأنا أتبعه، صعدنا إلي الشقة في الطابق الرابع، دخلت معه فأغلق الباب من الداخل بالمفتاح لم تكن نفس الشقة التي عرضها علينا السائق في نفس البناية، ربما يمتلكون أكثر من شقة، لكن كانت علي درجة أقل فخامة من شقة استقبالنا الأولى، لم أعلق على إغلاقه الباب كنت خائفة ومرتبكة.. جلس في صمت وأنا لم أجلس، ظل كثيرا يتطلع إليّ وارتاب أكثر في نظراته، ظل على حاله حتى اعتدلت وجلست على مقعد أمامه، رنّ جرس هاتفي كنت أعرف أنه باسل يريد أن يطمئن عليّ، هب من مجلسه وسحب حقيبة يدي وأخرج منها الهاتف وقال...

- كنت عارف انه هو، ولازم ارد عليه أنا.

نبت في جلدي من قلقي على باسل وأمي حين يعرفان أنني معه، وأنه على علم بعلاقتي.. بباسل لم يدع الهاتف يرن كثيرًا...

- استاذ باسل يا أهلين وسهلين.

- (استرسل في الحديث ولا اسمع رد باسل) أنا أسامة جوز المدام، ولا نسيت انها متجوزة وعلي ذمة راجل.

- (عاود الرد ودموعي تسيل) وانت مالك هي فين، في حد يخطف مراته يا محترم، طمن الحاجة هند انها معايا.

أغلق الهاتف، ثم ألقاه علي وجهي وسحبني من يدي مرة أخرى ثم صفعني على وجهي فطرحني أرضًا.

***

بعد عشرة أيام عدت إلي أهلي وجدتهم كانوا في انتظاري في شقة بيت العائلة، طرقت الباب كثيرًا فتحت لي أمي، سقطت مغشيًا عليّ أمام الباب، لا أدري كم ساعة نمت، قالوا أن أحد الجيران حملني إلي المستشفى والتي أمضيت بها أربعة أيام.

حين عدت إلي البيت، كنت لا أتكلم كثيرًا أستيقظ في الليل من

رؤية أسامة في المنام وأظل أصرخ، حتى تأتي أمي وتنام جواري وتقرأ لي القرآن في أذنيّ.

كانت أول مرة أخرج فيها من البيت منذ عودتي من المستشفى كنت أخشى رؤية الشارع ولو من الشباك.

أول مرة نشـاهد رمضان في مصر بعيدًا عـن الحيز الضيق ما بين الجمعية الشـرعية ونادية ومسـاكن عثمان، وبيت العائلة، خرجنـا بعد إلحاح من عمرو لنحتفل بفانوس رمضان كما قالت لنا عصماء، وأكثر ما طمئنني أن أسـامة مشغول في اعتصام أنصار الرئيس المعزول في منطقة رابعة العدوية، ذهبنا إلى السحور كنت أتأمل الناس.. هناك حياة أخرى يعيشها المصريون، محلات كثيرة وفوانيس ضخمة وإضاءات تملأ الشـارع وتزين مسـجد السـيدة زينب. قال لنا عمرو:

- أنا اشتريت الفانوس من هنا، السحور بقى فول بالزيت الحار دا أساسي عندنا في مصر علشان يقفل طول اليوم.

- (سألته): زيت حار، هيموتنا من العطش.

- (أجابني عمرو): لا، هو مش حار، هو اسمه كدا، دا زيت بذرة الكتان.

أثناء السحور جاء لأمي اتصال من أهلها، بعد قلق عليهم طالت

وطأته، واطمأنت أنهم نزحوا أخيرًا إلى حلب. بعد أن طال الضرب والقصف تقتناز وريف إدلب بالكامل، وبدأت تحكي عن معارك جديدة وعنيفة في شـمـال حلب وعن سـيطرة كاملة من قِبل الجيش الحر ومعاركه مع الجيش النظامي، وظهـور جماعات أخرى متطرفة ترفع شـعارات إسلامية مثل "جبهة النصرة"، وإقامة دولة الخلافة مـن تنظيمات أكثر تطرفًا في منطقة "الرقة". حوّل عمرو مسـار الحديث على الفور عن أداء عصماء المسـرحي، الأهم أن أمي لم تبدِ أي اعتراض على انضمام عصماء لفرقة سلمى المسرحية، بل كانت سعيدة بها وبإنجازها، ربما الغربة تغيرنا من الجذور، ما كان غير مسـموح بالأمس، صار اليوم أمرا واقعا بل أكثر بكثير صار أملا، انتهى السحور واقترح باسل أن ننتظر صلاة الفجر في مسجد السيدة زينب، أسرعت لأسير بجواره...

- باسل، عمرو جاب لعصماء فانوس نحاس، بدي واحد مثله.

لم يهتم أو يرد عليّ، تركني ونادى على عمرو، تركني وكأنني لم أقل شيئًا، كنت أشعر بأنه يبتعد عني منذ فترة، أذكر أن آخر مرة رأيته فقط في المستشفى حمل معه يومها باقة زهور، أمي أخبرتني أنه غطى تكاليف إقامتي بالمستشفى، بعدها أغلق كل الأبواب في وجهي، لمح لي بأن طلاقي بات شبه مستحيل، وعلينا التفاوض معهم. إنها معركتي وحدي.

دخلنا إلى المكان المخصص للسيدات في المسجد، كان مزدحمًا، سيدات من سكان المنطقة ومعهن أطفالهن، وسط هذا الزحام جلسنا نشاهد في صمت، ثم أمسكت أمي بمصحف وبدأت تقرأ القرآن، حتى رفع الأذان، وأقيمت الصلاة، كل منا سجدت سجدة طويلة بدعاء، عصماء سجدت دون أن تنطق بكلمة واحدة، ليلتها حكت لي أن لديها شعورًا بالامتنان للـه، هناك حياة أخرى وبشر يعيشون من أجلها، حتى لو كانت بسيطة وغير معقدة، مطعم الفول يختلف كثيرًا عن مطعمها في المول، مسجد السيدة زينب عتيق لا يشبه مساجد مدينة السادس من أكتوبر، روّاده أيضًا مختلفون، أما أمي سجدت ودعت أن يلهمها اللـه الصبر على البلاء، أما أنا سجدت وكلي رجاء في الخلاص ممن يحاصر أحلامي ويدفنها حية ومازالت تتنفس.

***

في أول جمعة في شهر رمضان دعت أمي سلمى وكريم وعمرو علـــى الإفطار، وأعددت معها الكبة اللبنيـــة والبيرق - ورق عنب - وأصنافًـــا عديدة. الأهم أنني أعددت صينية كنافة نابلســـية، أثناء تناول الإفطار سلمى تثرثر كعادتها لمعرفة اختلاف أسماء الأكلات بين سورية ومصر، وأقسمت لأمي...

- والله، يا طنط أحلى ورق عنب أكلته في حياتي، وكمان عرفت أن اسمه يبرق.

بعد أن انتهينا من الإفطار، جلست صامتة كان قلبي يعتصر كنت أعلم أنه لن يأتي معهم أنا أعددت الكنافة من أجله هو يحبها مثل أبي، وجلسنا أمام التليفزيون لا نشاهده، لكن نتحدث عن حياتنا والأكلات التي يحبونها، وفجأة انقطع التيار الكهربي، وكنا قد اعتدنا مثل كل المصريين على انقطاع التيار الكهربي بانتظام، خصوصًا مع بداية رمضان.

في هدوء دخلت عصماء إلى غرفتها، لتحضر فانوسها، وأضاءت الشمعة الساكنة داخله، الضوء المشع منها أحاط وجهها بهالة من النور الملون، من انعكاس الضوء على زجاج الفانوس، خرجت إلينا وهي تحمله في يدها، نظرنا إليها كأنها نجمة اهتدينا بها في ليل صحراء، غرقت سماؤه في ظلام دامس.

تركتنا أمي ودخلت إلى المطبخ أعدت الشاي على ضوء الشموع، وقطّعت كنافتي، التي لم تفقد تميزها.. صنعتها جيدًا حتى في مصر، حكيت لهم أن والدي الذي كان يحبها ويطلبها مني، ظلت أمي تحكي عن رمضان في سورية، وأنها سمعت كثيرًا عن رمضان في مصر ولم تعرفه قبل سحور السيدة زينب، وحين

تحدث عمرو، لم تكن أمي تعرف أنه يتيم الأم، ظل يحدثنا عن مذاق طعام والدته الذي افتقده، أكلها المصري، وعن أخته التي لا تجيد الطبخ، وأصر على عزومتنا في بيته بعد أيام.

***

اتفقنـــا معه أن نســـتقل ميكروباص إلى ميـــدان الجيزة، وقابلنا عمــــرو هناك ووجدت معه باســـل في انتظارنا، لنســـتقل آخر إلى منطقة إمبابة، حيث يسكن. حين وصلنا كان المكان مزدحمًا بشكل لافت، ركبنا معه توتوك إلى شـــارع ضيـــق، البنايات كانت قريبة من بعضها البعض، وبنايات ملتصقة ببعضها، بطريقة عشـــوائية، لكنها حميمية بشـــكل أو بآخر لا يمكن فهمه، ولكن شعور مختلف كأننـــا ألفنا المكان، حكي لنا عن طبيعة الحـــي، والبيت بتفاصيله كمـــا وصفه، دخلنا إلى بيته الصغير كان في انتظارنا أخته ووالده. أتأمل البيت إنه بســـيط ينم عن طيبة ساكنيه. وصلت سلمى وكريم عند أذان المغرب. أعدت لنا أخته أصنافًا كثيرة، وممبازا محشـــيًا، لم نكن نعرفه من قبل، شـــرحت لنـــا كيفية عمله وأنه أكلة مصرية خالصة، قالت أمي أننا نعرفها في سورية أيضًا باسم "السجقات".. وضعت في طبق عصماء فاجأتها بصوتها العذب.

- لأ انا ما بحب السجقات ابدأ، لا تحسبي حسابي

صمت الجميع، ونظرنا إليها والسعادة تغمرنا، لقد طال صمتها، وأخيرًا تكلمــت، احتفلنا بها جميعًا بالتهليل لســماع صوتها. ظل عمرو يتحدث إليها حتى يســمع صوتهــا ولكنتها الغريبة، حتى لو ســمعها مرارًا مني وأمي وباســل، لكن صوتها مختلف كما قال، شــعر أنها تنطق بطريقة مختلفة. وتمنى أن تستمر في حديثها حتى يحفظ صوتها في ذاكرته. وكعادة سلمى قاطعت الجميع.

- وقفي التمثيل الصامت، دا مبأكلش عيش اتكلي علي اللـه ومثّلي في السينما.

***

مضت بقيــة رمضان منهكة أنام طوال النهــار أقاوم من أجل مواصلــة الصوم، لا أســاعد أمي أبدًا في الطبــخ، وعند الإفطار أكل لقيمات صغيرة، نشــب خلاف بين عمرو وعصماء بعد علمه بزواجي من أسامة وكنت أشــعر بضيق كبير أنني تسببت لها في مشــكلة، ومرت الأيام دون أي اتصال بينهما، حاولت الاتصال به في العيد فلم يرد عليها، ســلمى تفهمت أن الموقف حساس، وكان من الصعب أن تروي هذه المأساة قبل أن تتوطد علاقتهما، حاولت ســلمى وكريم التدخل والاعتــذار لعصماء لما بــدر منه، ولكنها رفضــت، ووافقتها الرأي، كانت تعمل أيام العيد في المطعم، وبعد

انتهاء الإجازة عادت إلى البروفات من جديد، استعدادًا للعرض. لكن في منتصف آب قامت قوات الأمن بفض اعتصام ميدان رابعة العدوية بمدينة نصر، وميدان النهضة بالجيزة، وفرضت حظر التجوال. جاء باسل للإقامة معنا خوفًا علينا، دخلت أمي لتنام باكرًا كعادتها، كنت أقاوم النوم والوخم الذي أصابني وأسهر قليلًا مع باسل وعصماء، في هذه الليلة صارحني باسل بنيته في الهجرة عن طريق البحر، وأنه بدأ يعد نفسه لذلك. حاولت إقناعه بالصبر وأننا سنعود يومًا إلى الديار، فقال لي إنه لا يريد العودة أبدًا، يكفيه ما حدث معه في أثناء اعتقاله. تدخلت عصماء في الحديث:

- أبوه فالحل انك تروح برجليك ترمي حالك بالبحر.

ولأول مرة يحكي عن قصة اعتقاله وسجنه في سورية:

- شو نسيتوا من سنتين برمضان لما اعتقلني النظام.

- (أجابته) لا ما نسينا، وما نسينا كمان قديش ظافر الله يرحمه كان قلقان عليك كتير.

كانوا يلقون القبض على من يتعامل مع الإنترنت أو يعمل في مجال البرمجيات بشكل عشوائي، لكن لن أكذب عليكما أنا كنت من أنشأ صفحات مناهضة لنظام حكم بشار الأسد عقب ثورتي مصر وتونس، ليلة القبض عليّ وصلت إلى المبنى وقت الفجر وصعدت

إلى الطابق السابع غرفة رقم 215، هذا هو طابق التحقيق، تركوني ومن معي، وجوهنا إلى الحائط وكل من يمر خلفنا يضربنا، ولا نستطيع الالتفات إليه، في الصباح جاء المحقق، وأبلغه أحدهم بأن هؤلاء تابعون للإنترنت.

في آخر الليل، استيقظت بعدما أنهال عليّ أسامة ضربا وركلًا وجدتني ملقاه علي السرير بعدما نزع عني العباءة فقط كان باسل يحكي ويسترسل وأنا أتذكر ولا أبوح.

سحبنا رجل في طابور.. نزلنا إلى غرفة أرضية تشبه القبو، بعد أن نزعوا عنا الثياب. كانت الغرفة مقسمة إلى مناطق (حمص، حلب، والشام). غرفة أربعة أمتار يوجد بها أكثر من 50 شخصًا معظمهم كان يعاني من أمراض جلدية، كل يوم يموت في هذه الغرفة شخص على الأقل. ويدخل آخر مكانه وصمت.

كانت الغرفة مضاءة بإضاءة خافتة، تمكنت من رؤيتها في غرفة واسعة كاملة بالأثاث من الدولاب والمرآة وشاشة تليفزيون حديثة مسطحة، كان أسامة غارقا في النوم.. جسدي كان يؤلمني، كنت بحاجة شديدة للذهاب إلى الحمام خاصة أني لمحت بعيني بابا أخر في الغرفة أدركت أنه حمام، لكني خفت أن أوقظه. كان صوت باسل يتقاطع، مع صوت ذاكرتي.

لا يوجد حمام بالمكان الضيق.. كانت رائحة البول معتقة في

كل زوايا المكان، يقدمون لنا الأكل عبارة عن قطع من خبز عفن وزيتون وبطاطا. مرت أيام لم يدخل جوفي طعام.. رائحة كل شيء تخنقني، لا أذكر أنني كنت صائما، ولكن الطعام كان مقززا.

كنت يقظة طوال الليل حتى شقق الصباح، لم أعد أتحمل محاصرة البول داخلي كاد يتسرب مثل الأطفال، أزحت الغطاء بخفة، وتسللت إلي خارج الغرفة أبحث عن الحمام، حتى وجدته تخلصت من البول قبل أي شيء، ثم نظرت حولي يا له من حمام نظيف فخم، تطلعت إلى جسدي كأنه ملطخ بالألوان قدامي كانت ألوانها ما بين كدمات باللون الأحمر وقليل من الأصفر في طريقه إلى أن يتحول للون أزرق، كانت عضلات بطني تؤلمني من الركل ولكن لا أثر لوجود أي احمرار لكنه كان ألما لا يحتمل، أثار أصابع أسامة محفورة في ذراعي، تأكدت من غلق الباب وخلعت ملابسي.. كنت أحتاج لأطنان من الثلج والماء البارد لتطفئ آلام جسدي، حين انتهيت من الاستحمام وارتديت ملابسي خرجت من الحمام وجدت أسامة استيقظ وقام بتحضير الإفطار علي المائدة، دعاني إلي المائدة.. رفضت لم يصر كنت أبحث عن العباءة قال لي إن الدولاب فيه بعض الملابس ويمكنني ارتداءها.

ظل باسل يتحدث عن قذارة الزازانة ولكنها لا تقل قذارة في نظري عن البيت الذي خطفني فيه أسامة، انتبهت لباسل وهو مسترسل.

في أول أيام العيد أحضروا للسجناء بقلاوة كانت سيئة للغاية عطنة، ولكنه أكل منها. كان هناك رجل ختيار نصحنه بأن يعتاد على هذا الطعام، فعليه أن يتمسك بالحياة والبقاء، كان يقول له "أنت لسه شاب أنت المستقبل اللي جاي".

وقفت أمام الدولاب أبحث عن أي شيء أرتديه، انعكست صورة أسامة على المرآة أمامي دخل وأغلق الغرفة، وحين حاول الاقتراب مني صرخت كثيرًا وركلته ركلة أبعدته عني وسبني بعدها وخرج من الغرفة.

- بعد العيد نودي على اسمي، رُبطت عيناي، حتى دخلت غرفة واسعة بسقف عالي كأنها ساحة فيها حبل معلّق بالسقف ودم على الأرض.

(صمت قليلا قطعت عصماء صمته بشغف)...

- شو صار بالغرفة؟

أغلقتها فور خروجه، ارتديت ملابس كانت موجودة في الدولاب، ظل يطرق الباب كثيرًا وأنا أقول أني لن أفتح له الباب هددني بكسره. انتبهت مرة أخري لباسل.

أدركت أنني ميت لا محالة. قام الرجل بتعليقي في هذا الحبل لمدة ساعتين، وبعدها جاء وضربني بالخرطوم الذي توضع فيه

الأســلاك الكهربائية لمدة نصف الساعة، بعدها سحبني إلى غرفة المحقق، وجّهت لي أســئلة من نوعية من أعطاني ســلاحًا، ولأي مجموعة أنتمي، وكم مظاهرة شاركت فيها، ولم تكن لدي إجابة عن هذه التهم، فطرحني أرضًا، ووضع حذاءه على وجهي.

- (تحركت وجلست بجواره وأمسكت يده كاد أن يبكي) باسل أرجوك لا تبكي.

بكيت أنا كثيرًا، فتحت لأسامة الباب وابتعدت.. هددته لو اقترب مني سلّقي بنفسي من الشرفة، كاد أن يكسر ذراعي.

شدني إليه وكانت عيناه لا تشبه أي عيني رأيتهما في حياتي في تلك اللحظة، حينما نظرت إليهما، كما تنظر الفريسة لمفترسها، ليست نظرة قوة ولا استبسالا ولا توسلا بل هي نظرة تأمل بوحش لا يعرف الرحمة، كما هذه الحياة، نظرة محاولة لربما تطفئ هذه النظرة القليل من توحشه، أمسك يديّ بإحكام والتصق بكل جسده بي، حاولت يائسةً أن أفلت منه دون جدوى، حاولت الصراخ لكن يده القوية أسكتت اخر محاولة للخلاص بوضعها على فمي، ازداد صوت أنيني الصارخ ومعه كان يزداد هو وحشية، فمقاومتي له كانت تزيد من شهوته تجاهي، بدأ بتقطيع ملابسي وكأنه كان يكتشف هذا الجسد بكل تفاصيله.

كان الحد الأقصى لمدة وجودي في السجن 33 يومًا، تعرضت

للتعذيب بشكل يومي، ضرب موجع وركل وصفع على وجهي وتحقيق يومي.. دفع والدي نحو نصف مليون ليرة من أجل الإفراج عني، وعند تسليم أغراضي، قال لي المحقق: لا تتحدث عما يحدث داخل السجون، ولكنّ آخر طلب مني الكلام لأكون عبرة لكل من يحرض ضد النظام على الإنترنت. استقبلني والدي كدت أسقط من شدة الإعياء، وكنت مصابًا بأمراض جلدية، مع وجود حشرات في شعري.

استسلمت تمامًا واعتذرت منه وطلب مني أن أُقّبل قدمه.. رفضت في البداية لكني استسلمت حتى يكف عن إيذائي.. تركته نائمًا في ظهيرة اليوم الخامس، بحثت عن المفتاح لم أجده كان حارس العقار يأتي أحيانًا بطلبات من السوبر ماركت لم أراه قط لكني كنت أسمع صوته، أمسكت بعصاة المقشة وحاولت طرق شباك الجيران من ناحية المطبخ برغم خوفي أن يكونوا تابعين للجمعية الشرعية ولكنها محاولة الغريق للتعلق بقشة لم يفتح أو يرد أحد، لكن نادى عليّ ناطور البناية، صعد السلم، ثم نظر إلى وجهي كثيرًا.

- أي خدمة حاجة يا مدام.

دخلت لأتأكد أن أسامة مازال نائمًا، وعُدت إلي الناطور، طلبت منه مسكنًا من الصيدلية وطلبت منه ألا يرن جرس الباب ولايطرق

عليه، وانا سأنتظره عند الشباك.. عاد بعد أقل من عشرة دقائق وخلفه زوجته، شكرته وطلبت منه أن يلقه وألتقطه ثم قال لي بفضول كشفته عيناه.

- لا مؤاخذة يا مدام انتم عندكم عيل صغير بيصرخ بالليل...

أجبته بالنفي، وسألته هل اشتكى أحد من الجيران، كنت أحاول الاستفسار عن العقار ومن يسكن فيه، كانت إجابته مقتضبة ويريد أن يسأل كثيرًا، أغلقت الشباك خشية أن يستيقظ أسامة.

- (ردت عصماء): كل هل حكي صار ماضي، انت هلق هون حاج تتذكر يلي راح بعدين مع الزمن شوي شوي بتنسى.

حاولت أن أنسى عندما سافرت إلى مدينة طرطوس وهربت منها إلى لبنان عن طريق البحر، أقمت في لبنان فترة نقاهة في مشفى هناك بمنطقة عالية، لمدة شهر. وخضعت للعلاج النفسي، ولم أتمكن من البقاء في لبنان لوجود عناصر حزب الله هناك، وأصبح اسمي مدرجًا على قوائم الأمن في سورية.

بعدها بيومين خرج أسامة، رنّ جرس الباب كانت زوجة الناطور...

- يا مدام انا مرات البواب الأستاذ خرج لو عايزة حاجة مني.

طلبت منها أن تأتي عند شباك المطبخ، فهمت منها أن البناية خالية تقريبًا وأنها تعرف الشيخ طلعت وأخبر ها زوجها أني سورية، وهي تريد أن تتأكد أن أسامة زوجي خاصة أنها سمعت صراخي من قبل، قلت لها أنه زوجي وأني مخطوفة من أهلي، وصفت لها عنوان أهلي في منطقة بيت العائلة أو الذهاب إلى عمل باسل، حاولت أن أتذكر رقم باسل لكني فشلت.

لم أعلّق على كلام باسل، غصة جديدة في قلبي، سجن يقل لا يقل مرارًا عن سجني بين أحضان أسامة، في اليوم العاشر جاء إليّ باسل ومعه مجموعة رجال سوريين.. منهم رجل مسئول عن منطقة بيت العائلة فتح لهم وحدثت مشاجرة وانهالوا على أسامة ضربا، ابتسمت لي زوجة الناطور وأنا أغادر البناية.

أعدت له عصمــــاء عصير ليمون، ظل يبكي بأنين مســـموع، وقالت له...

- كل يلي مخوفني إنك تموت غريق.

- *تبلعني سمكة بنص البحر احسنلي بألف مرة من الرجعة.*

***

تطورت الأحداث خلال أيام، فما لبث أن انتهى اعتصام الإخوان

المسلمين في ميدانيّ رابعة والنهضة، واستمر فرض حظر التجوال في مصر. استقر باسل معنا بشكل نهائي، خاصة بعدما تأكدنا من اعتصام اسامة في ميدان رابعة، والتزمنا البيت بعد التشديد على اللاجئين، واستمرار احتقان المصريين من مساندات البعض للإخوان، وقام الشيخ طلعت بالإبلاغ عن السوريين الذين ورطهم في الذهاب والاعتصام في ميدان رابعة العدوية. بدأت السلطات المصرية في إعداد قائمة ربما للترحيل.

كنا ننام في الغرفة، وباسل ينام في الخارج.. أيقظنا ذات صباح على جثث الأطفال الذين ماتوا بالاختناق إثر ضرب قرية الغوطة الشرقية بريف دمشق بالسلاح الكيماوي، نشاهد ما يجري في مصر ونخشى الترحيل، نشاهد ما يحدث في سورية فنخشى العودة لمصير موت محقق وتحقق، بنهاية آب قررت الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا بحتمية توجيه ضربة عسكرية لسورية، سهرنا أمام الشاشة حين اجتمع رئيس وزراء بريطانيا بنواب المجلس، من أجل التصويت على الضربة، وبفارق ضئيل من الأصوات رفض القرار، فعاد الوزير بخيبة أمل لرفض طلبه في المجلس، ويوقظني على ظهور الرئيس الأمريكي في خطاب له قال إنه سيوجِّه ضربة عسكرية محدودة من أجل ردع النظام السوري. قالوا إنها ضربة لن تكون مفتوحة وليست طويلة أيضا، وقال لي باسل أن أمريكا ستضرب النظام من خلال قواعدها في المنطقة، كل هذا في النهاية

ليس معاداة للنظام ولا مســاندة للشعب الســوري إنما ليصب في مصالح أمريكا.

نفيق وننام على نشرات الأخبار من جديد، تم الاتفاق بشأن نزع السلاح الكيماوي، وحظر استخدامه ضد المدنيين، على أن يسمح بشار بدخول المراقبين الدوليين لنزع السلاح، لكن هذا كله لم يكن كافيا ليعدل "باسل" عن سفره، أعد كل شيء من أجل هجرته، رتبّ أمور سفره مع رجل سوري ساعد كثيرين على الهجرة - غير الشرعية- مقابل ثلاثة آلاف دولار، أرسلها له والده مع سوري آخر، قمة المأساة أن والده لم يكن على علم بنيته، فقط أخبره بحاجته للمال وفي النهاية قد ينجو المسافر ويصل إلى البر، أو يموت غرقا ويحرق قلب الجميع.

كل محاولاتي لإقناعه بالإقلاع عن هذه الفكرة باءت بالفشل، جاء ليودعنا، في الفجر سيسافر إلى الإسكندرية، ومنها يركب قاربًا صغيرًا مع مجموعة أخرى من الهاربين، في رحلته، بعدها سيصل إلى مركب أكبر في عرض البحر، حتى يصل إلى قرابة الشواطئ الإيطالية، وهناك سوف ينتظرهم قارب آخر يُلقِي بهم قرب الشاطئ، ثم عليه أن يسبح لمسافة بضعة كيلومترات حتى يصل إلى الشاطئ، هناك تُلقِي قوات الأمن القبض عليه فيطلب اللجوء. كنت أقاوم حزني على فراقه حتى لا يظهر ضعفي أمامه،

وأمي التي تتألم ظلت تدعو له وتحاول باستماتة إقناعه بالبقاء من أجلها:

- باســل، انــت بمقام "ظافر" هلــق، الكل تركنـــا وراح حتى "أم عزيز" على حب النبي يا ابني لا توجعلي قلبي، واللـه ما عدنا نستحمل أكتر من هيك.

كانت عصماء تنتظر مجيء عمرو عند الشرفة، بعد أن علم بسفر باسل وصل مع والده قبل حظر التجوال، وقال إنه جاء ليودع باسل وجاء معه والده، جاء ليعتذر عما بدر من عمرو.

أعدت عصماء العشاء. كان يكفيني ما حلّ بحياتي، كنت هائمة على وجهي، كأن الدنيا صارت ضيقة لا تتسع لوجودي وأحلامي، ما بين عقدة الماضي التي لا تحل، والخوف على ضياع المستقبل، عمرو اعتذر إلى أمي كثيرا عما بدر منه، وقام وقبّل جبينها:

- آسف يا أمي، مش عارف إزاي أنا قلت الكلام ده، أنتي مش عارفة أنا بحبك قد إيه.

- عمرو، أنت متل إبني، ومافي أم بتقسى على ولادها، أنا كتير زعلانة لسفر باسل معنّد إلا بدو يسافر.

بعد أن تناولنا العشاء، همّ والد عمرو بالرحيل قبل موعد الحظر،

لكن الوقت قد فات بسبب الأحاديث المطولة، وبدأ الحظر.

اتصل بإبنته؟ وطلب منها المبيت عند خالتها المقيمة بالقرب من منزلهم، كان متوترا حتى اطمئن عندما حدثته من بيت خالتها، ظل يعتذر عن التأخير وعدم شعوره بمرور الوقت. قال أنه سيذهب للمبيت بأقرب مسجد رفضنا جميعا بما فينا باسل، وهذا أيضا ربما يكون خطرا، أعددت لهم شايًا وأحضرت معه كنافة نابلسية تكبدت العناء في تحضيرها عند جارتي التي تكفل زوجها بإحضار لوازمها، لم أعد أشتهي صنعها ولا رائحتها، وشكل وجهها المحمر وأنا أضع فوقه "قَطر" العسل كان يشعرني بالغثيان ولكني تمساكت، في الحقيقة أنا أخفيتها عن الجميع من أجل أن تكون آخر شيء يأكله باسل من يدي قبل رحيله.

عصماء بدت ليلتها وكأنها سعيدة بسفر باسل كما شرحت لنا أن شـــعورها بأن الموت ربما يكون حلًا للخلاص من تلك الحياة، وإذا كتـــب اللـه له الحياة فهي بالتأكيد ســـتكون حياة أفضل بكثير، حياة بعيدة عن الدماء والخوف والكراهية، قاطعها والد عمرو مثلما كان يفعل أبي؟ ليســـكت عصماء، حكى له عمـــرو عما مررنا به، عن "الجمعية الشرعية" والشيخ طلعت وزواجي من أسامة.

ظل يحدثنا عن الأمل والشباب، وكيف أن معركة الحياة ما زالت في بدايتها، وتحول الحديث من دون أن أدري بالعودة إلى حكايات

التاريـــخ، عن الأز هــر والفاطميين، ليكمل حديثـــه الذي بدأه على مقهى "الحســـين" في رمضان، كنت أشعر بالملل، أريده أن يرحل ويتركني أتحدث إلى باسل قبل وداعه، كنت ألعن ساعة الحظر التي حبسته عندنا، حتى وجدت باسل منتبها لحديثه، وكأن هذه المشاعر تخصني وحدي، قاطعه باسل فانتبهت أنا أيضًا للحديث.

- بعد كل هلي صار بقيت مصر سنية.

رد والد عمرو:

- مرت ســـنين كثيـــرة على وجود الفاطميـــين في مصر، وكل محاولاتهم، كانت من غير تأثير فعليّ، لحد ماجه "الحاكم بأمر الله" كان راجل غريب الأطوار، ورث الحكم صغيرا، انقسم المؤرخون بشأن شـــخصية "الحاكم بأمر الله" ومدى تصديق المصريين له، فمنهـــم من رأى فيه مثالا للعدل والحكمة والنزاهة، ومنهم رأى إنه ســـفاح وطاغية، في بعض الأســـاطير يقال إنه منع الناس من أكل الملوخية والسمك لأنه بيكرههم.

علقتُ على كلامه:

- إلا الملوخية، كتير حبيتها يوم يلي كنا معزومين عندكن بالبيت.

رد عليّ: ضاحكًا:

- أخيرا "جيداء" شاركت معنا، بس علشان الملوخية التي أكلناها في رمضان (ثم استرسل مرة أخري)...

يا ريته كان اكتفي "الحاكم بأمر الله" بمنع الملوخية، المصيبة الكبرى أنه ادّعى الألوهية، كان طاغية فاجرا، قتل معظم وزرائه.

قاطعته عصماء:

- وكيف مات مقتول عمو هاد "الحاكم بأمر الله"؟

- لا، اختفى في جبل المقطم، أنا بس عايز أوصل معاكم لـ مقصد حكايتي، مش مهم ما فعله "الحاكم بأمر الله" وصدقه الناس، لإن التاريخ مابيوقفش.. حصلت في مصر مجاعة، عرفت باسم "الشدة المستنصرية" لما ورث حفيده "المستنصر بالله" الحكم، حكم لمدة 60 سنة، ورث الحكم صغيرا، نشبت في عهده صراعات طائفية كثيرة، لكن الطامة الكبرى هي المجاعة، كان الناس بياكلوا لحوم الكلاب والقطط بل حتى أكل بعض، روى المؤرخ المقريزي أن رجلا خطف امرأة وقطع من لحمها وأكله.

ابتسمت "هند" ابتسامة أنين:

- مافي قصة بالتاريخ عن واحدة أكلت كبد زلمة إلّا "هند"...

ابتسم لها، بعد صمت، قاطعته "عصماء" بشغفها الطفولي:

- كمل حكياتك عمو.

- أمرك يا ست "عصماء" بسبب الأزمة أو الشدة الناس صدقوا في ألوهية "الحاكم بأمر الله" منهم من طلع جبل المقطم يدور عليه، وفي منهم من انتظر عودته، لحد ما جه من بلاد الشام "بدر الجمالي" ينسب إليه حي الجمالية في منطقة الحسين، عمل مذبحة تخلص فيها من زعماء الشغب والفوضى.

رد "عمرو":

- كفاية يا بابا، باسل محتاج يريح شوية وأنت وعصما هتكملوا الحكاوي يوم تاني.

ردت عصماء:

- عمرو، هي الحكاوي يلي عم يحكيها عمو مهمة لانو متل ما بيقول كريم، لازم نعرف اصل كل شي وتاريخه.

ضحكنا بعدها، وأكمل حديثه عن نهاية الدولة الفاطمية حتى تأسيس دولة قال أنها الأيوبية وحكى عن صلاح الدين الأيوبي، وماعدت أنتبه، انتقلوا إلى السياسة والحظر وتهديدات الإخوان، وتوعد الجيش، كم أنت ثرثار يا رجل لا شيء يوقفك عن الكلام، وأخيرا قال إنه يتمنى الاستقرار القريب.

- انا شايفة انو كل واحد فينا محتاج يرتاح شوي وينام بالذات باسل عنده سفر ومو أي سفر، ولازم يرتاح شوي ليكون مستعد لكل شي.

وافقوا على الفور، كأنني أنقذت باسل.. تمدد الجميع على الأرض، ودخلنا نحن الغرفة لننام، لم أستطع النوم مع قرب رحيل باسل تمنيت أن تتوقف ساعات الأرض لكن الساعات مرت سريعة وحان وقت رحيله، بعد سماع أذان الفجر، انتظرنا أول شعاع، مع اقتراب ساعة فك الحظر، حمل باسل حقيبته إلى السيارة التي تنتظره، ودّع عصماء واحتضن أمي وهي تبكي، كأنها تفارق ما تبقى من روحها، ثم مددت يدي فسلم عليّ سلام الغرباء ومضى ولم يلتفت إليّ، لا أدري كيف ركضت على الدرج لألحق به وأنا أصرخ: "باسل" يا "باسل".

وقبل أن يفتح باب السيارة، عاد إليّ، وقفت أمام عينيه واحتضنني، طوقته بذراعيّ، فتحولتا إلى جناحيّ طائر انطلق من قفصه إلى فضاء حضنه الفسيح، تركني ثم عاد واحتضنني مرة ثانية، صار الاحتضان الأخير براحا أوسع من براح الفضاء والكون، قبّل جبيني، فتحت عينيّ، فالتقطت أشعة الشمس التي انعكست على عينيّ الزيتونيتين كما كان يصفهما أبي:

- ديري بالك على حالك، أول ما أوصل لح طمنك عني.

أصر عمرو أن يسافر معه، ووعدني بأنه لن يتركه حتى يطمئن عليه، لوح لي بالسلام فرددت عليه بتلويحة أخري، حتى اختفت السيارة عن مرمى النظر، صعدت وقد نامت عصماء لأن لديها عملا بعد ساعات، بالإضافة إلي البروفات. غادر والد عمرو فور رحليهما.

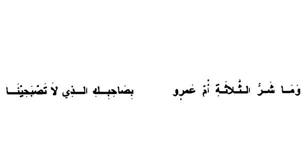
لم أستطع النوم، كنت مستيقظة لم يغفل لي جفن، قبل التاسعة كنت على نار أنتظر اتصالا من الإسكندرية، وتركت لي أمي هاتفها لكن المتصل كان الشيخ طلعت طلب مني أن أذهب لزيارته في "الجمعية الشرعية"، أغلقت الخط وشعرت بغثيان شديد هذه المرة.. فاتجهت مسرعة إلي الحمام تقيأت كل ما في جوفي علي الرغم من أني لم أكل من الكنافة...

- أنا حامل؟!!

الفصل الثالث

ميراث العائلة





وَمَـا شَـرُّ الـثَّـلاثَـةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِـكِ الـذِي لاَ تَصْبَحِيْنَـا



بين الحين والآخر أنظر في المرآة أراقب الدمعة الســوداء على وجهي، ما زالت على حالها، أخشى أن تزول بفعل الحرارة، الجو خانــق والمكان يعج بالممثلين، ربمــا كان "كريم" على حق، حين قرر أن نكون أول العارضين، مشــيت على أطراف أصابعي فوق خشــبة المســرح، حتى لا أحدث صوتا، كان المكان خاليا تماما، انتهــى العمال من الديكور الخاص بعرضنا وانصرفوا، وبشــغف طفلــة لا تقوى على المواجهة، تحركت نحو الســتارة من الجانب الأيمن وأزحتها قليلا حتى لا يلاحظ أحد، وجهت نظري إلى المكان المخصص للجنة التحكيم، أتــى واحد من أصل ثلاثة وما زلنا في انتظار الباقين، رئيــس اللجنة قال في آخر اتصال مع "كريم"، إن الطريق مزدحم، ولم يحدد في أي منطقة هو.

حسابات المصريين للوقت مختلفة، عشر دقائق تعني أكثر من نصف الساعة، رئيس اللجنة قال إنه في طريقه إلى المسرح ولن يصل قبل نصف ساعة، لا أعرف 30 دقيقة كم تساوي من الوقت،

لكن لا أنكر غرابة هذه المدينة دائمة الازدحام، التي لا أحد فيها يصل في موعده.

المبشر أن القاعة بدأت تمتلئ بالرغم من الظروف الراهنة، أخشى أن يكون كل من فيها أقارب وأصدقاء عارضي اليوم، الكراسي الأمامية كما هي، "جيداء" تلعب بورقة في يديها، تفتحها ثم تطويها مرة أخرى، كأنها تحفظها دعاء أو ربما آية من القرآن، لا أدري، سلة الورد تحملها على ساقيها كما هي، "هند" تجلس هائمة، ترى أين ذهب؟ كان يجلس بجوار هند!

عيناي بحثتا عنه في كل مكان، ربما ذهب ليشتري شيئا من الخارج، زجاجة مياه، فقد ترك لي زجاجته، خرج ليشعل سيجارة، نسيت، هو لا يدخن السجائر، فقط يدخن "الشيشة" كما يسميها الجميع هنا، أعدت الستارة إلى وضعها، جلست فوق الأرضية الخشب، وأسندت ظهري إلى عمود خشب أيضا، الخشب بارد من فعل مكيف الهواء، ملمس الأخشاب الباردة يمتص حرارة جسدي، كدت أختنق بالداخل والدمعة تزول، لماذا دفنت كل الأوراق إلى الأبد؟ ربما الخشية من قراءتها، لماذا أخاف؟ كل ما حدث ويحدث ليس لنا يد فيه، نسيت أن أرتدي القفازات البيضاء.

القفازات في جيبي، هي الشيء الأبيض الوحيد وسط الملابس السوداء، دائما كل شيء يذكرني بحكايات "شاهين" حكى لنا وكان

يستشهد بالقرآن، لا أذكر الآية بشكل جيد، لكن أنا لست غرابا أعصمَ، بعثه اللـه لمن قتل أخاه، ليُرِيَه كيف يواري سوأة أخيه فكان من النادمين.

ما زال الانتظار طويلا، ولم يلحظ العارضون في الداخل غيابي، أغمضت عينيّ، كانت ليلة مناجاة لنجوم الليل، خيال من الاقتراب والترقب، أبت الأهداب أن تحتضن وتغلق الجفون، ربما الراحة لا تأتي قبل البوح، بعدها نمت لنحو ثلاث ساعات، كان نومي عميقا على الرغم من قلقي من عرض اليوم.

حين أمســكت بقلمي، أخذت من خوفي مِدادا لأكتب كل شــيء تمنيت أن أقصه، وكأن الخرس الذي أطبق على لساني ثُقِّلت وطأته، افتقــدت أن أنادي، قلبي كان صغيرا بالأمس، صار مع الأيام مُثقَلا بالآلام والأوجاع، لم يعرف قبل هــذا اللقاء معنى للحب والأمان، لكن يبقى شريط العمر في مخيِّلتي كطيف برق في الليل، وكان في الظلام كالثريا.

حين تصبح البدايات مجرَّد ذكريات، تحمل بين طيَّاتها دموعا اعتصرتها الآلام.

باتت أسماء المذكورين مسجَّلة بدفتر الضحايا، وأول ما كتبت، تساءلت: من منَّا يعرف إلى أين ستأخذه قدماه؟

بعثرت حبـــات الكرز، وحنينـــا مفقودا لآثـــار مَعَاصر العنب والزيتون، التـــي تركها الرُّومان والبيزنطيون منذ آلاف الســـنين بقرية الأجداد.

حمل المتاع ورحـــل منذ ذلك الزمن البعيـــد، حين انتقل جدي للعمل ببلدية مدينة إدلب، وترك البارة، مسقط رأسه، تغيرت حياته وحياة أبنائه الخمسة، من يخصني هو "شاهين" هكذا سأكتب عنه، لا يهمني أنه والدي، المهم أن "شـــاهين" كان في الزمانات هناك، كان أصغر الأولاد وتكبره "وفاء" بعامين، كانت صديقته المقربة، يتحـــدث إليها، كان يحكي لها كل صغيرة وكبيرة عن أحلامه، نعم أحلامـــه كنت أعرفها، اعتاد أن يقضي إجازته الصيفية في البارة، كانت "وفاء" تذهب معه إلـــى هناك لارتباطها بـ"هند" ابنة خالها، التي تصغرها بخمسة أعوام.

كان صيف 1982 وقد بلغ عامه الســـابع عشر، حينها نال شهادة الثانويـــة، كان لا يكف إطلاقا عن ذكر تلك الأيـــام المحببة لقلبه، الزيـــارة الصيفية الســـنوية، فبيت جدته كان مكونـــا من طابقين، الطابق السفلي كانت تسكن فيه جدته، وكانت "هند" تقيم معها إقامة كاملة، لكن في الإجـــازة الصيفية، تترك الغرفة الخارجية، وكانت هنـــاك غرفة أخرى خصَّصَتها جدَّتُه لها ولـ"وفاء" حين قدومها من إدلب، خال "شاهين" والد هند، وجدتي زوجته، وأولاده في الطابق

الطــوي، كانت "هند" تنظف الغرفة المنفصلة وتعتني بها من أجل قدومه، كان لها باب خاصّ يطِــلّ على الفناء الخلفي للمنزل، كان يقيم فيها شاهين وحده، يقضي معظم الوقت في القراءة والاطّلاع، فقد كان شغوفا بالشــعر والشعراء، وكان يذهب من حين إلى آخر إلى المركز الثقافي القريب بمَعَرَّة النُّعمَان، وارتبط بشاعر المدينة ارتباطا روحيّا، لم يكتفِ بحفظ أشــعاره ومعرفة كل شـــيء عنه، صار حلمه أن يسير على دربه، هذا ما قاله، أراد أن يكمل دراسته بحلب وينطلـــق بعدها إلى بغداد، وتبتســـم أحلامه إلى أن يدرس، وربما بيروت أو القاهرة، يكتب أشــعارا وينشـــر دواوين، ويلقي القصائد هنا وهناك، ربما تمنى أن يسمع دوي تصفيق حاد، لكنه لم يكتب قصيدة لسواها.

أما هي، فبفطرة الحب كانت تنتظر الأيام التي تجمع ضفائرها في ضفيرة واحدة إلى الخلف، حتى تستطيع مساعدة جدتها في صناعة المكدوس الحار، فقد كان يحبه كثيرا. ذات مساء جلس مع "وفاء" في الفناء، وانضمت إليهما "هند" لا تدري كيف تتحدث إليه، فهو مختلف كثيرا عن أقرانه، كان كل ما في خاطرها سؤال:

- هل أعجبك المكدوس الذي تناوله في العشاء؟

ثم أضافت معلومةً:

- لقد شاركت في صنعه.

حين تحدثت إليه أفســدت العلاقة بينه وبيــن عزلته، أصدرت تعليقا طفوليًا حول قشــرته المصمتة، نظرتها الخضراء كمساحات من الفدادين لروح قدسية، وعلامات أنثوية غامضة، وإشارة قصيرة بســهم ناعم، تركته وخلدت إلى النوم مــع ملائكة الغيب، افترش حشائش الأرض، ظل ساهرا مع القمر الذي بدا كقنديل مخملي حط بجناحه بعد أن ســقط عنه ريش الطير، وانفجرت اللغة والأشعار ليكتب أول قصيدة، كتب أبيات غزل في عينيها الخضراوين.

شقشــق الصباح وهو ما زال مســترخيا بالفنــاء، أيقظ "وفاء" و"هند" وقرر أن يأخذهما في رحلة إلى مَعَرَّة النُّعْمَان، ربما يستمد شــجاعة مفقودة من شاعر المدينة، كان يحكي هذه الرواية لنا وهو يســخر من نفسه، إذ قطع مسافة تزيد على ستة كيلومترات، تحول فجأة إلى مدرس أدب، أو ربمــا مدرس تاريخ، أمام التمثال صاح بأعلى صوت: "نحن الآن قد وصلنا إلى مَعَرَّة النُّعْمَان" كان الغرض الأساسي من الزيارة الذهاب إلى المركز الثقافي هناك، ظل يشرح ويستفيض في تاريخ البلدة والشاعر.

صار هذا المكان جزءا لا يتجزأ من ميراث العائلة، تذكَّرت صوته ونبراته وهو يروي لنا هذه الحكاية، المركز بُنِيَ بالأساس ضريحا للشاعر والفيلسوف أبي العلاء المعري، الضريح كان له مسجد بُنِيَ في أربعينات القرن الماضي، وفي أثناء ما عُرِفَ

بالوحدة المصرية السورية، تحوَّل المبنى من مسجد إلى مركز ثقافي، ويُقَال إن الأديب المصري طه حسين، زار المعرة مرات عدة، وأهدى المركز كتبا وخزائن خشبية، لحفظ الكتب في ذكرى ميلاد أبي العلاء.

أحاول جاهدة أن أفهم موقفه في ذلك اليوم، لماذا توقف عن كتابة الشعر؟ فقط اكتفي بالاستعراض الطفولي أمام الحبيبة، ربما هو من هؤلاء الذين لا يملكون الثقة في تقديم صنع أيديهم، ودائما ينظرون إلى آخرين ذوي شأن عظيم في ما مضى، حُفِروا في ذاكرة التاريخ وخُلِّدت أسماؤهم، لأنهم أدركوا قيمة ذواتهم واختلافهم عن ذويهم، فكل منا خُلِقَ في زمان مختلف لكي يحيا حياته لزمانه الذي يشبهه، ومن ينظرون إلى الخلف لا يتقدمون خطوة واحدة إلى الأمام، ولهذا السبب غير المعلن، طوى الورقة التي سهر ليلة يعيد ويزيد في حروفها وكلماتها، وظلت بجيبه طوال الطريق حتى حانت اللحظة التي سينطلق فيها بقصيدته، فعجز لسانه من الخشية في حضرة الماضي.

غربت شمس ذلك اليوم البعيد، ولا أحد يدري أين ذهب هؤلاء الأولاد، عادوا إلى البارة بعد رحيل الشمس، وكان بانتظارهم جدته وخاله، كان آخر صيف قضاه شاهين في البارة قبل أن تُمنعَ هند، ليس فقط من الخروج معه، بل أيضا من التحدث إليه، أو حتى الذهاب إلى جدتها في أثناء وجوده، فلم يعد إليها مجددا.

مرّت ثلاثة أعوام، ما عــاد يراها إلا لثوانٍ معدودة في الأعياد وقت زيارة الجـدة، تخرّج في دار المعلميــن بعد عامين، وعمل مدرسا للغة العربية، أما "هند" فلم تكن تبوح لنا بالكثير، لكنها حين تشــرع في الحكي، تنبعث من بين كلماتها رائحة ذكريات وردية، لندرك كثيرا عن مشــاعرها، عندما حضــرت إلى إدلب لحضور فــرح "وفاء" كان قد مر وقت طويل ولم يرها، لكنها في ذلك اليوم شعرت وكأنه يراها للمرة الأولى، أطلقت شعرها وحلّت ضفائرها، هذا التحول الســاحر عندما تشــعر الفتاة بأنها لــم تعد طفلة، تملأ المــكان بطاقة محفزة للفت انتباه الجميع، وضعت الكحل الأســود فزاد بريق عينيها الزيتونيتين، اللتين تشعان ألوانا لقطرات الضوء المنعكس عليهما، فتختفي بهما أنوار الزينة المعلقة. ظلّت نظراتها تتأمل "شــاهين" فقد تغير كثيرا منذ يوم المعرة، زاد رجولة وهيبة وأناقة، لم تعهدها عليه من قبل.

كانــت تنصت إليه وهو يتحــدث إلى أمها، حيــن يحدثها عن المدرسة والبنات بالمدرسة، وللمرة الأولى انتابتها الغيرة، لقد صار مدرســا ويرى كل يوم بنات كثيرات غيرها، وربما يجد فيهن من هي أجمل وأذكى منها، وما كان يزيد ارتباك مشــاعرها، أنها بنت القرية التي اكتفت بالصف التاسع وشهادة الكفاءة، ولم تحصل على شهادة البكالوريا. لم يغب عن بالها منذ ذلك اليوم، لأيام وليال طوال تقتلها الأفكار، هل ما زال يذكرها؟ بعد نحو أسبوع ذهبت إلى حلب

لزيـــارة وفاء في بيتها الجديد، أســرعت للحديث إليها في المطبخ، وهي تعد القهوة لضيوفها، وإذا به أمامها، فتركتهما "وفاء" باتفاق مسبق مع "شاهين" من دون أن يخبرها أنه يحبها كعادته.

ظل لمدة عام يعمل ويكدح من أجل توفير ثمن "دبلة الخطوبة" وهي ترفض كل من يتقدم لها من دون سبب، وجَدَّتُها وأبوها كانا غاضبين منها، فقد كانت مشكلتها أنها حقا لا تعرف هل ما زال يحبها ويفكر فيها أم لا، وكان الجميع يرون أنه ما زال صغيرا.

وتحــت ضغط أبيها قبلــت بخطبة رجل من أهــل البارة، كان يعمــل بحلب، قبل موعد الخطبة جــاءت إليها "وفاء" وهي حامل في شــهرها الخامس، واعترفت لها بأن "شــاهين" ما زال يحبها كثيرا، وعليها أن ترفض هذه الزيجة، فهي تعرف أنها تحبه أيضا، وأخبرتها أنه يعمل من أجلها، ولن يأتي لحضور الخطبة، وتركتها وهي لا تدري ماذا تفعل، لماذا جاء اعترافه متأخرا؟ وما الســبيل لإنهاء هذا الكابوس؟

ذهبت إلى جدتها كما كان الاتفاق مع "وفاء" لتجد "شاهين" ينتظرها في الفناء الخلفي، وبمجرَّد أن رأته أمامها ظلت تبكي حتى شعرت جدتها بوجودها، لا تدري كيف امتلكت هذه الجسارة لتبوح لجدتها بحبها لـ"شاهين"، وبأنها لا تريد الزواج بغيره، ولم تهب شيئا، حتى بطش أبيها، كلما تأملت موقفها، وجدت روحها

الصلبة القوية تشبه النبتة الجبلية، لها رائحة تملأ المكان بعطر زكي، ازدادت قوة وصلابة ممتدة من ثنايا جبل الزاوية، لكن الأيام استبدلت ببريق عينيها دموعا لا تفارقها، تظل ملتصقة بها مثل الندى على أوراق الأشجار، أخفت ذلك البريق.

أمسكت جدتها بيد الولد الصغير وذهبت ودخلوا غرفة مظلمة، "شاهين" لم ينطق بكلمة واحدة، لكن جدته تقمصت دور ناظر المدرسة وأعطت أوامرها. دائما كنت ألحظ ابتسامة فخر وهو يروي وصف جدته له، كعريس لا يوجد مثيل له لأي بنت.

- بيكفي هو مدرس قد الدنيا وساكن بالمدينة كمان يعني الشاب مالي مكانه بين الناس ومو عليه شي

فسخت "هند" خطبتها، لكن العائلة أجّلت خطبتها لـ"شاهين" إلى حين زواج "عابد" الأخ الثالث لـ"شاهين" الذي شرع في تجهيز بيته مع أخيه، البيت كان بجوار الملعب البلدي في إدلب، نفس الحي الذي تربى فيه، البناية كانت بها شقة مخصصة له بالدور الثالث فوق شقة أخيه، الشقة كانت من ثلاث غرف فُرِشت غرفة تلو أخرى كلما تيسرت الحال.

على الرغم من الصعاب، تزوج "شاهين" بـ"هند" في نفس يوم زواج أخيه "عابد" في شتاء 1989، وفي خريف العام التالي أنجبا

ولدا، أطلق على ابنه البكر "ظافر"كان يريد أن ينتصر في معركته ربما لا يعرف أي انتصار ينتظره، فاسمه "شاهين" إلا أنه لم يحلق يوما في السماء ليحوم، ولم ينقضّ على فريسة يومًا، كان شاعرا مسلما حالما.

لم يكتفِ باختيار اســم ابنه البكر، بل تدخل في تسمية ابن أخيه "عابد" الذي يصغر "ظافر" بشــهرين، ســمّاه "خاطر". "ظافر" و"خاطر" لم يفترقا طوال أيام الدراســة، خصوصا بعد أن أنجبت "هند" البنات، ولم تنجب زوجة "عابد" سوى "خاطر" فقد أصابها في أثناء حملها مرض دوالي الســاقين، لــذا آثرت ألا تنجب مرة أخرى.

حاولت "هند" أن تستكمل دراستها، حتى تحصل على شهادة البكالوريا، لكنها أنجبت بعد عام واحد فقط الابنة الوسطى "جيداء" منذ أن ولدت وجهها يشبه السماء الصافية وابتسامة عذبة لا تفارقه، تحير في وصفها، هل هي ابتسامة رضا؟ أم ابتسامة أمل؟ صارت عيناها ملونةً بحزن صافٍ لم يتعكر، تجاهد من أن تنفلت من قبضة الذاكرة وتنحسر على نسيان لا تتقنه.

لكن إرادة هند القوية وبمســاعدة "شاهين" حصلت على شهادة البكالوريا بمشــقة، عملت مدرســا وكيلا، لا تعمل بشــكل دائم، بل إذا دعت الضرورة، بينما انتقل "شاهين" للعمل بمدرسة المتفوقين

لكفاءته، وتحســنت الأحوال نسبيا، وبعد ثلاثة أعوام أنجبت "هند" مرة ثالثة وأخيرة، آخر العنقود.

حين وُلِدت وصفني "شاهين" بأنني قصيدته العصماء التي لم ولن يكتبها يومًا، قال لي ما نطق به عندي رؤيتي: "صوب اسم وضع عند أقصى مساحة للنظر، فإن حروفه ينسج بها قصة وطن، ويطرز بمعانيه نيل قصة إذا ما سمحت أن تُختَتم ذات يوم".

كنت أنتظره وأنا صغيرة، وعندما أفتح له الباب يحملني بين ذراعيه، يحتضني ويقبّلني، فقد كان يعمل طوال الوقت، يعطي دروسا خاصة في اللغة، للطلبة بعد الدوام الدراسي، وما عاد يكتب شعرا، بل أصبح يقرأه ضمن مقررات الكتب الدراسية فقط. مرت الأيام، وهج الحب بدأ يتلاشى مع مسئولية ثلاثة أطفال، لكن "هند" كانت تقلب بيد من حديد، ناره الخامدة تحت الرماد، لتعيد إشعاله من جديد، ليملأ الدفء قلوب أفراد عائلتها الصغيرة.

***

رغم العطلة نصف السنوية، كانت جمعة شديدة البرودة في الخارج، طلب مني خاطر الذهاب إلى صبا لأعطيها هدية عيد ميلادها التي أحضرها معه من الشام بالأمس، كان هذا في أواخر كانون الثاني عام 2011، كنت أحب ذلك حتى لو ادّعيت عدم

رغبتي في تنفيذ أوامر خاطر، النميمة مع صبا أمتع ما عرفت في حياتي لن أنسى، النميمة عن المدرسات والطالبات وبالأخير ننتبه للحديث عن أنفسنا.

- صبا، يلا فتحيها لنشوف شو جايبلك.

- عقبالك، يلا انشالله بعيد ميلادك يلي جاي بجبلك أيهم هدية احلى من هي بكتير.

- قولتك ممكن نكون وصلنا مع بعض لدرجة يهديني هدية بعيد ميلادي، مابعرف حاسة ان عيد ميلادي لح يجي ولسى انا وأيهم عم نتعرف بعض.

أعدَّت لنا والدة صبا شوربة العدس الساخنة، ومن شدة حرارتها كانت تدفئ كل شيء، حتى الروح، مع هذا الدفء كنت أحدثها عن أيهم وعن مشاعري وأحلامي كنت أنتظر لعلها تتحقق قريبًا إذا التحقت بجامعة حلب، الكلام ينتهي ثم نعيده من أوله ولا نمل من تكراره.

قُبيل العشاء جاء ظافر ليصحبني إلى البيت، كان الجو متوترًا، ثمة ثورة ضخمة قامت في مصر مطالبةً بنزول الجيش إلى الشوارع، وفُتِحت السجون، كان هذا ما قصَّه ظافر في طريق

العودة، كان يقول إن ما يحدث في مصر الآن جاء على غرار ما حدث في تونس وخروج رئيسها من البلاد. أول مرة أتحدث في السياسة، كنت أقول بصوت لا يسمع "شو دخلني بمصر؟!" عند خروج الرئيس التونسي من البلاد، كانت أول مرة أعرف أن اسمه بن علي، لكن مبارك كان أكثر شهرةً.

قضى شاهين الليل يقلب بين قنوات التليفزيون، لا أحد منا يعرف ما حدث تلك الليلة، طال الانتظار حتى ظهر الرئيس المصري آخر الليل، كنا جميعًا صامتين، بعد أن انتهى من خطابه لم يطق أحد، لم نفهم لماذا؟ ثار الشعب المصري بهذا الشكل وكأنه بركان ظل خامدًا لسنوات وانفجر؛ ليملأ مصر كلها بحممه ويشتعل ولا يمكن إخماده.. نام الجميع وسهرت مع شاهين كان يتمتم:

- معقول يعمل متل بن علي ويترك الكرسي؟

بعد تصاعد الأحداث، وظهور مبارك المتأخر على الشاشة علّق شاهين:

- الشـــعب المصري نزل لانـــه رافض فكـــرة توريث مبارك لابنه.

(ثم استرسل في الحكي) في العام نفسه الذي وُلِدت فيه عاد بشار من لندن بعد وفاة أخيه الأكبر باسل في حادث سيارة، كان بشار يعمل طبيبًا للعيون، لكنه فور عودته انخرط في العمل السياسي

حتى أُنتخِب رئيسًا لحزب البعث العربي الاشتراكي في عام 2000، وعندما تُوفِي الأسد الأب أُنتخِبَ رئيسًا للبلاد في تموز من العام نفسه كان عامك السادس.

لا أذكر تلك التفاصيل غير أن صورة الأسد الابن ملأت الشوارع والميادين، وهذا ما كان مخططًا له في مصر أيضًا، لماذا اعترضوا؟، في هذه السنة دخلت المدرسة، ولم أتخيل يومًا أن حافظ قد مات لأن صورته بقيت معلقة في الفصل وبجانبها بشار، لم أكن مدركة فكرة أنه مات.. فلو مات لماذا ما زالت تلك الصورة معلقة فوق السبورة، ولم أتخيل أبدًا أن تلك الصور الخالدة قابلة للإزالة.

ظلت الأحداث تشتعل أكثر في مصر.. وشاهين يزداد اهتمامه، بل الجميع، ولا أتوقف عن الأسئلة، سألته ماذا يفعل الإخوان المسلمون، وهل لهم وجود في سورية؟ كنا نعرف أنه قد قُضِيَ عليهم، حكى لنا والدي هذه القصة من جديد، في نفس هذا اليوم قبل 29 عامًا، شنَّ الأسد الأب حملته العسكرية الموسعة بقيادة أخيه طلعت، ضد المعارضة المتمثلة آنذاك في الإخوان المسلمين عقب مواجهة الجماعة مع السلطة. طُوقَت مدينة حماة لمدة 27 يومًا متواصلة، وتم ضربها بالمدفعية، عُرِفَت فيما بعد بمذبحة حماة. ومنذ ذلك الوقت استطاعت سلطة الأسد الأب إسكات الجميع،

وبالذات الإخوان الذين لم نسمع عن وجود لهم في سورية منذ ذلك الوقت.. اطمأن قلبي، كما كانوا يقولون مصر ليست تونس، وأصلّي أن تكون سورية ليست مصر.

***

بدت الأشياء مكروهة حين أتذكرها، تركت القلم وفتحت النافذة لأتنفس هواءً نقيًا ونظرت إلى السماء التي تزداد ظلمةً كلما اقترب الفجر، لكن طيف عمرو حضر، همس لي بنداء خفي: هل يأسرك الخنوع للذكرى التي تتآكلين في حضرتها؟

لقد صرخ يومًا في وجهي في إحدى بروفات العرض.

- قلت لكِ كفي عن الارتجال، إن الحركة التي تقومين بها لا تناسب الإيقاع ولا تتفق مع التعبيرية المفترضة، والتي حددها مصمم الرقصات ومؤلف الموسيقى.

إنه يتعامل دائمًا كمخرج للعرض ويلقي بالأوامر من خلال مصمم الرقصات الذي يثق به، كيف أشرح له أن الحركات التي أرتجلها هي جزء لا يتجزأ من شدة اتساقي مع ذات العارضة؟

انصب اهتمامي على المذاكرة مع قرب امتحان شهادة البكالوريا.

عاد ظافر في إجازة قصيرة، طلبت منه أن يذهب معي إلى حلب من أجل شراء بعض المستلزمات وزيارة الجامعة هناك، ولكنه رفض بحجة انشغاله وأنه لا وقت لديه قبل عودته إلى الشام، شكوت لصبا ما فعله ظافر، وأن شاهين لم يسمح لي بالذهاب، فقد قال إنه يخاف - على حد وصفه - من انتشار الشبيحة في كل مكان، وأيضًا الجيش ينتشر بالقرب من المدينة.

طرت من الفرح عندما اتصلت بي صبا وأبلغتني بأنها اتفقت مع خاطر على الذهاب معنا غدًا إلى حلب، واقنعته بأن يؤجل سفره لأنها تريد رؤيته. كدت من هول المفاجأة أن يغشى عليّ عندما وجدت أيهم ينتظرنا عند موقف البولمان أو كما كان يُطلَق عليه شاهين الكرنك، راح خاطر يسلِّم عليه، فضغطت صبا على يدي ثم همست في أذني

- قلت لخاطر ان أيهم جاي معنا بحجة انه هو يلي بيعرف بجامعة حلب.

فـــي الطريق أصرت صبا على أن تجلــس بجوار خاطر رغم ضيقه الشـــديد منها؛ لأنه ســـيتركني أجلس بجـــوار صديقه، وقال لي...

- ليش ما قعدتي جنب عصما؟

- ليش يعني، ولا ليكون مو عاجبتك قعدتي جنبك.

- مفكرتيني مو فهمان عليكي انت وعصما.

لكن في النهاية طاوعها ربما لرغبة في نفسه لمجاورتها، كادت عيناي ترقصان من فرط السعادة، تحدثت معه عن حلمي في الالتحاق بكلية الآداب، وانتظار هذا اليوم بفارغ الصبر، وهو يحدثني عن الجامعة والأولاد والبنات، مازال صوته يرن في أذني.

- بتعرفي يا عصما، شو هو أحلى شي بحياة الجامعة انك بتعملي صداقات جديدة وحياة جديدة ومختلفة عن هديك الحياة يلي عشناها أيام المدرسة.

بجواري أيهم أدخل معه مدخلًا ضخمًا مكتوبًا عليه جامعة حلب، تذكرت تلك اللحظة التي اختلستها من حلم طالما راود خيالي، الجو كان مشمسًا فاحتميت بظله، على امتداد نظري، كانت هناك مساحات خضراء بين الكليات، ومن حين لآخر كنت ألمح مجموعة من الأصدقاء جالسين يفترشون العشب، وتمنيت أن نجلس معًا مثلهم، ثم حدثت نفسي بأن هذا الحلم أصبح قريبًا. خلفنا على مسافة ليست قريبة كان خاطر يسير بجوار صبا، ابتعدنا أكثر، حتى وصلنا إلي كلية الهندسة، شرح لي أيهم مباني الجامعة والكليات التي تضمها، سألته عن كل شيء، حتى وصلنا إلى المبنى الرئيس لكلية الهندسة المعمارية - الكلية التي كان يدرس بها - وتوقف

أمامه ليشرح لي خريطة المبنى، عدد قاعات المحاضرات والأقسام التي يضمها المبنى، ما أذكره أن واجهة المبنى كانت زجاجية. يجب أن أطلب من المخرج وضع شظايا من الزجاج حتى لو جرحت يدي وأنا أجمعها.

اقترح أيهم بعد هذه الجولة التفقدية الذهاب إلى كارفور لتناول الطعام لأنه شعر بالجوع، وعندما وصلنا طلبت من الجميع: أن نتناول دجاج كنتاكي.

تركت أيهم يطلب لي مثله، جلسنا نتحدث عن أحلامنا وكأننا نرشق رغبتنا في العودة، وبدأت صبا حديثًا عن العلامات المطلوبة للالتحاق بالجامعة، ومن ثم أبدى خاطر رفضه التحاقها بجامعة حلب.

- الأجواء كتير متوترة بالبلد، ماني شايف في ضرورة لانك تسجلي بجامعة حلب، وخصوصا انو في بإدلب كلية للآداب والعلوم الإنسانية كمان؟

لم يكن رفضه لهذا السبب فقط لكنه لاحظ بفراسة تعلُّق عيني بأيهم. جلست مع أعضاء الفرقة في مشهد مكرر، ولكن بتفاصيل مختلفة، أغلقت النافذة وعدت إلى الكتابة. وهل من الرحمة أن نبوح بتفاصيلنا الخشنة إلى نعومة الآخرين؟

***

حددت بداية امتحان القســم الأدبي في الســادس من حزيران، وقبيل بدء الامتحانات كانت المعارك قد تجددت في منطقة جســر الشــغور بريف إدلب، سقط عدد من القتلى على يد قوات الأمن في احتجاجات مناهضة للنظام ومطالبة بإسقاطه، في اليوم التالي وفي أثناء تشييع الأهالي جثث القتلى، أطلقت قوات الأمن النار عليهم مرة أخــرى، ما أدى لوقوع مزيد من الضحايا، ليلة الامتحان حاصرت قوات الأمن مدينة جســر الشــغور والقرى المجاورة، ولأول مرة تُســتَخدم المروحيات، ويتم إطلاق النار من الجو، ما أثار رعبًا في قلوب ســكان المنطقة، وارتفع عدد الضحايــا من المدنيين وقوات الأمن.

في صباح يــوم الامتحان مررت على صبــا، في الطريق كنا نتذكر أهم الأسئلة التي أكد عليها المدرس في المساء، دخلت اللجنة وتســلمت ورقة الامتحان، في هذه الأثناء هاجم مسلحون مجهولون جميع المراكز الأمنية النظامية بمدينة جســر الشــغور، استخدموا الرشاشات والأسلحة الثقيلة وقنابل يدوية الصنع، فازداد عدد القتلى من الجانبين. ســمعت روايات كثيرة حينها لا نستطيع تصديق كل شــيء، ولا نملك أيضا التكذيب، كان الجميــع يردد الحكايات في المخيم، وأنصت يومًا لســيدة من مدينة جســر الشغور كانت تدلي بدلوهــا، قالت إن الأحداث تصاعدت بســبب جماعة تتبع أبي عبد اللــه، وهو واحد ممن أفرج عنهم بشــار بعد تســلمه الحكم، قضى

مدة تقارب خمســـة عشر عامًا في الســـجن، كان من قادة الإخوان المسلمين الذين فرّوا من مذبحة حماة، تزعّم حركة عُرِفَت فيما بعد بأحرار الشام أو جماعة أبي عبد اللـه، يُقَال إنه قاد مظاهرات سلمية بمنطقة جسر الشـــغور، لكن الحكومة أرسلت قوات الردع السريع ومكافحة الشـــغب نحو 2000 عنصر من الأمن، فرد عليهم 2000 شخص حاصروا مبنى المخفر هناك، ويُقَال إنه قَتِل في هذه الأثناء 120 عســـكريًا من الأمن على حسب بيان الحكومة، التي وصفتهم بالمجموعات الإرهابية.

بعد يومين قابلت أيهم صدفة على الدرج وهو خارج من بيت خاطر. حين أغلقت زوجة عمي الباب وجدته أمامي بادرته بالتحية والسلام، رد عليّ سلامي في وقار وعيناه تصبان خجلًا، وأخبرني بأنه جاء لزيارة زوجة عمي وللاطمئنان عليها؛ لأنها هاتفته وطلبت منه بعض الأشياء لإحضارها، فهي تعتبره أخًا لخاطر لم تنجبه. سألني عن أحوال المذاكرة والامتحانات..

قلت له أنني اجتزت امتحان الفلسفة والعلوم الإنسانية على خير، واليوم اجتزت امتحان التربية الدينية بسلام.

ثم تبادلت معه حديثًا عن رأيه في الأحداث التي تمر بها البلاد، وقال:

- مو مخوفني وقالقني انو يصير في تدخل خارجي متل ما صار

بليبيا، حاسس أنو وضعنا مختلف كثير عن مصر وتونس.

صدَّقت على كلامه، لا أفهم كثيرًا في أمور السياسية والحرب، ولكني دائمًا كنت أرى أن تفكيره صائب لإعجابي به. طلب مني إذا احتجت إلى أي شيء أن اتصل به على الفور، تبادلت معه رقم هاتفه وشعرت بحسي الأنثوي بأن شيئًا ما جًد في علاقتنا، لم أعد بالنسبة له أخت ظافر وابنة عم خاطر صديقيه منذ الطفولة، فهو أيضًا يعيد اكتشاف وجودي في هذا البيت، خرج من باب البيت ومضى أمامي وأنا أنظر إليه حتى غاب وأخذ منحى آخر في طريقه.

في صباح التاسع من حزيران، استيقظنا على أخبار لانشقاق الجيش، تركت أثرًا عميقًا في نفوس الجميع، بدأت الأمور تسير بشكل مختلف وسريع، أسرع من قدرتنا على الاستيعاب، بينما واصل الجيش النظامي تقدمه إلى جسر الشغور، قام مقدم من الجيش يدعي حسين هرموش بنشر مقطع مصور له على الإنترنت، وعرض على معظم القنوات الفضائية بالتزامن مع نشره، أعلن فيه انشقاقه عن جيش الأسد النظامي وأن مهمته الحالية هي حماية المتظاهرين العزل المطالبين بالحرية والديمقراطية، وبرر أسباب انشقاقه بسبب القتل الجماعي للمدنيين العزّل في جميع أنحاء سورية، وتورط ضباط الجيش في مداهمة القرى والمدن الآمنة،

وقتل الأطفال والشيوخ في مجازر جماعية، خاصةً مجزرة جسر الشغور، وجَّه رسالة واضحة للجيش وبدأ يخاطبهم لحماية المدنيين والأملاك العامة والخاصة والمؤسسات الحكومية من عصابات القتل والإجرام التي يقودها بشار الأسد، ورسالة أخرى للشعب مفادها أن المنشقين نذروا أنفسهم لحماية الحرية والديمقراطية، وطالب الشباب الانضمام إلى صفوف المتظاهرين العزّل الأحرار في جميع شوارع سورية، ووجه رسالة إلى كل أحرار العالم لمساندة الشعب السوري.

الأمور صارت أكثر تعقيدًا، كان عليَّ أن ابتعد قليلًا، عن كل ما يدور حولي، لأخوض معركة امتحان مادة التاريخ في 12 من حزيران، أُشِيع وقتها أن القرى المجاورة لجسر الشغور مثل مَعَرَّة النُّعْمَان وسراقب والبارة حاولت قطع الطريق لمنع الجيش النظامي، وكانت هذه المرة الأولى التي نستمع فيها إلى كلمة "لاجئين" قالوا أنهم نزحوا من مدينة جسر الشغور إلى حدود تركيا، وأنشئ مخيم للاجئين هناك، ونازحين آخرين قدموا من جسر الشغور إلى القرى المجاورة. تسلمت ورقة الإجابة، نظرت إليها وهي تتلّق بخلو وفراغ، وعند الشروع في الكتابة كأن النار أشعلتها وبدأت تضوي، تأكل بعضها بعضًا ولا تموت عطشى.

***

كنت أنتظر ظهور النتيجة ولا يشغل بالي سواها، وكل ما كنت اخشاه أن تؤثر الأحداث على التحاقي بجامعة حلب كما خططت، جدتي جاءت لزيارتنا واستقرت في غرفة ظافر، سيدة مسنة لا تقوى على شيء سوى الدعاء، لم تتوقع يومًا أن تترك بيتها لأي سبب كان. شاهين كان يحبها كثيرًا، كانت دائمًا منذ طفولته زوجة خاله الحنون، وهكذا عرفها. عندما استقرت معنا كنا سعداء لوجودها، فلم نعتد حتى على زيارتها. جيداء كانت تحب الجلوس معها لأنها تحدثها عن أمور الطبخ والزواج والأولاد، وكنت أتمنى لو تتزوج جيداء من العريس الحلبي الذي تنتظره دون أن تراه، كنت أبغض طريقتها لكن هذه أمنيتها في الحياة، ومع الوقت صرت أتمنى لها ذلك أيضا لأن هذه الزيجة، ستسهل مهمتي في الالتحاق بالجامعة هناك، كنت أجلس مع جدتي أحيانًا لكني لا اهتم كثيرًا بأمور البيت والطبخ مثل جيداء أشاركهما فقط لتعزيز موقفي من عريس جيداء المنتظر.

لم يغمض لي جفن ليلة ظهور النتيجة، وجدت جدتي تصلي الفجر، صليت بجوارها وطلبت منها مزيدًا من الدعاء الذي كنت بحاجة إليه. انتهت من الصلاة وجلست بجوارها، حكت لي عن بيتها الذي تركته رغمًا عنها حتى بكت، تذكرت الأشجار والفناء الخلفي حيث كنا نلعب في الزملات، لأول مرة تفصح حين كانت شابة وأولادها صغار، كانت تكره الأيام التي تتساقط فيها أوراق

الأشجار، لأنها تملأ الساحة الخلفية بأوراق يابسة، وكانت تخشى عليهم في تلك الأيام من انتشار الأمراض، بعض الثمار تسقط على الأرض وتجف وتتعفن، وتبذل مجهودا مضاعفا في تنظيف البيت، استرسلت من جديد تذكرت زيارات شاهين وإخوته لقضاء إجازات الأعياد والعطلات الصيفية، كانت تحكي بشغف وكأن إدلب مدينة ساحرة لأن القادمين منها مختلفون، أهلها ليسوا فلاحين مثلهم، فضحكت، أثار كلامها فضولي فسألتها هل زرتِ الشام؟ قالت لي أنها زارتها وهي صغيرة مع أبويها، كانت أمها بحاجة إلى زيارة طبيب هناك، كما وصفت.. كان ذلك في خمسينيات القرن الماضي، لم تنسها أبدًا، لمعت عيناها وهي تحكي:

- رحنا على سوق الحميدية، كان كتير كبير ومعجوء، وقتها ضيعت أهلي بالعجئة وشافني صاحب محل عطارة كان زلمة ختيار، قعدني عنده بالمحل ومشان ما خاف جبلي بوظة عربية بالفستق الحلبي من محل كتير مشهور اسمو "بكداش" وقتها ما بعرف بشو بدي قلك لقلك كانت اطيب بوظة بدوقها بحياتي، بوقتها كانت النسوان بتمشي بالفساتين (تناتير) القصيرة وكان الراديو عم بيذيع أغاني عبد الوهاب، قعدت على كرسي خشب صغير قدام المحل عم أتفرج على هالعالم يلي رايحة ويلي جاي وانا عم اكل البوظة لدرجة ما بعرف قديش مرء علي وقت وانا هونيك، بعد ما اهلي لقوني رحنا وقتها على الجامع الاموي وصلينا

صلاة شكر بمناسبة اني رجعتلهن بالسلامة، وقتها زرنا مقام رأس الحسين.

بدأ نور الصباح يتسلل من النافذة المغلقة، ونحن على حالنا جالستان على سجادة الصلاة، كانت تحكي الحكايات وأنا مستمعة وحكاياتها المثيرة، أمسكت يدي، ومسحت عليها بطرحتها البيضاء، وقالت إنها تعلمت قراءة الكف من جدتها، ثم قالت لي:

- قدامك سكة سفر.

- (ضحكتُ ساخرةً) هاد كف إيدي مو فنجان قهوة.

- اسمعي كلام هلختيارة، متل ما انت وجيدا عم تخططو لح يجي يوم وتسافروا ولح يجيكي عريس وتتزوجيه وتخلفي منه ولاد وبنات ولح يتحقق كل يلي ببالك.

بالتأكيد كل ما جال بخاطري هو أيهم، جامعة حلب والانتقال مع جيداء إلى هناك... قلت لها.

- آمين يا رب العالمين.

أمسكت يدها، قلت لها وأنا أقرأ كف يدك، ضحكت وقالت جربي، لا أذكر ما قلت لها، لكني رأيت صورة الفناء الخلفي، مرسومة على كف يدها كان شديد الجفاف والخطوط تشبه شقوق

الأرض العطشى للماء، رأيت الثمار متساقطة جفت وتعفنت، أوراق الأشجار على الأرض يابسة صفراء فركتها الأقدام.

وإذا بشاهين يطرق الباب وقلت جدتي تفضل، قطع حديث الذكريات واحتضنني قال لي متأثرا بفرحة نجاحي...

- مبروك يا بنتي، جبتي علامات بتخليكي تدخلي كلية الأداب.

تركتهما على السجادة، وطرت من فرحتي مثل الفراشة كما وصفتني جيداء وأنا أكتب بالأمس، أيقظت كل زهرة، في بستاننا الصغير، إنه حلم الجامعة. جيداء استيقظت من صوت زغرودة جدتي، أيقظت هند واتصلت بظافر:

- عم استناك، واوعاك تنسى هدية نجاحي.

كانت الفرحة بنجاحي مثل نسمة هواء باردة في ذلك الصيف الساخن، فأنا بنت شاهين التي ستلحق بالجامعة بعد أن خيب أمله ظافر ومن بعده جيداء.

لكن بعد أيام، فرحتي لم تكتمل، فالحلم بدأ يتلاشى بالتجزئة، لا جدوى من كل المحاولات غير المثمرة في إقناع أحد من أفراد العائلة بالذهاب إلى جامعة حلب، يكفيهم ما هم فيه، وخصوصا بعد أن قررت صبا الالتحاق بكلية الآداب بإدلب.

***

عشية وقفة شهر رمضان، حيث اعتادت هند تحضير الكبة التي تكفي لشهر كامل تحتفظ بها في الثلاجة وتستخدمها طوال الشهر، ومن أهم الطقوس طبق كبة لبنية في أول يوم للإفطار. كانت جيداء تساعدها في لف اليبرق، أما أنا فكنت أتحدث مع صبا على الهاتف عن مأساة حياتي لفقداني جامعة حلب، شاهين وجدتي جالسان أمام التلفاز، وإذا بظافر يفتح الباب ملقيا بشنطة سفره على الأرض ويجري نحو جدته ليقبل يدها. عندما سمعت صوته تركت كل شيء وطرت، احتضنته وناديت على جيداء فأخذها في حضنه، ثم عاد.. دار بي دورة كاملة في دائرة المكان وسألته...

- شو وينها هديتي؟

- افتحيها.

أحضر لي شـــنطة نســـائية أنيقة، كان بداخلها دفتر أكثر أناقة، قال:

- هاد دفتر منشان تكتبي عليه المحاضرات، بس وينك اوعك تسهري وتنامي متأخرة متل العادة، وتصير إمي كل يوم الصبح تفيقك وتعيط عليكي بصوت عالي مشان تقومي على جامعتك. بدي منك تكوني شاطرة وترفعيلنا راسنا.

ســـعادتنا كانت غامرة لانضمام ظافر لمائدة الســـحور، وصف لنا كيف كان الطريق طويلًا بســـبب انتشـــار قوات الجيش بطول

الطريق، ثم حكى لنا عن عمله الجديد، وصديقه الجديد باسل.

تزامن أول يوم في شهر رمضان مع بداية شهر آب، استيقظت هند في الصباح الباكر وأيقظت شاهين الذي تأخر في النوم على غير عادته، لم تكن تدري أنه صلى الفجر مع ظافر في المسجد، ثم بدأ في قراءة القرآن من أجل ختمة اعتاد عليها سنويًا في شهر رمضان الكريم. أيقظته ليذهبا معًا إلى السوق، اشترت مؤنًا تحتوي على أرز وبقول للتخزين وخبز ولحوم وخضراوات، ومستلزمات رمضان كقمر الدين والمكسرات وغيرها، أكثر بكثير مما يحتاجه البيت، واقتسمت ما اشترت بيننا وبين أخيها. ذهبت مع شاهين إلى تفتناز لزيارة أهلها هناك للاطمئنان عليهم وإعطائهم المؤن التي جلبتها وذهبت معهما لإيجاد فرصة للخروج من البيت ونوع من التفاخر أمام بيت خالي بقرب دخولي الجامعة وربما لأجد من يدفع شاهين لأهمية جامعة حلب، البيت كان مختلفا عن بيتهم في البارة، بناية من ثلاثة طوابق، سكنها مع جيران من البارة، سلم عليهم شاهين كان يعرفهم جميعًا، وأن صاحب البيت كان يزورهم في البارة، وكان تاجر حلبيًا وأصله من قرية تفتناز، كانت حكايات خالي تختلف عن حكايات جدتي، وقال إن هناك وجود لجماعات مسلحة تستهدف قوات الأمن، لكن الجيش يضرب بالمدفعية الثقيلة، وأسر عدد كبير من أهل القرية ظلمًا في عمليات الاعتقال العشوائي، وأن الأوضاع غير آمنة والباقين هناك على وشك الرحيل علّق شاهين

على حديث صهره:

- طبيعي يكون لكل فعل رد فعل، يعني تصرف الجيش بهيك حالة ما بيستوعبه لا عقل ولا منطق، بعدين ليش لينزل الجيش من اساسه، قوات الأمن كانت بتكفي.

هكـذا وجدت مدخـلًا جيدا لموضوع حلب، سـألت خالي عن وضعها الأمني وأفضليتها عن إدلب جاء رده في مصلحتي.

- خالو بظن انو حلب أمان أكثر من إدلب مو هيك؟ يعني إذا الموضوع تطور ممكن نروح على حلب.

لم يعلق أحد على كلامي، تحدثوا كثيرا عن الأحداث، وصعوبة العمل حتى تدبر الأمور، والسعي وراء التجارة ولربما تخسر في ظل الأوضاع المتوترة، واستحالة تنازل الأسد.. الجميع أجمع أن هذا خيار غير مطروح مهما طال أمد الأحداث، الخشية من تدخل أجنبي مثلما حدث في ليبيا.. يوجج الصراع، لم تطول جلستنا اطمئن الجميع على وضع جدتي، وودعنا بعضنا.. إذا انتقلت الأحداث إلى إدلب هم في انتظارنا، لكن استبعدنا امتداد الصراع لداخل المدينة، أعطى شاهين لخالي بعض الأموال.

تبدل حال شـــاهين منذ عودتنا من تفتناز ، سكن حزن عميق قلبه كأنه مليء بصـــور لحرب على أطراف المدينة لا يرى ســـواها، زخارف غامضة نقشـــت على جدران البيت، وأنين موسيقى تشبه أصـــوات الدموع تزرف وكأنها تصلي كل مســـاء صلاة ومناجاة ألا تســـكن مدينتا وتصبح مدينة الموتى، لقد أصبحت البارة ساحة للحرب، البلدة التي شـــهدت أجمل أيام صباه، في تلك الليلة قرأ ما تيســـر من القرآن، وجلس وحده بالغرفة ممسكًا بأوراق وقلم ليكتب بعض الأشـــعار، تركهـــا جانبًا عندما دخلت إليـــه أناديه، كفرصة للاختـــلاء به، وجزء مـــن محاولاتي الدؤوب فـــي الحصول على الموافقـــة المرجوة للجامعة، خاصة أنه كان يخطط للعمل في حلب منذ أيام قليلة ســـمعته يتحدث إلى عمتي وفاء بهذا الشأن، خوفًا من تطور الأحداث، وزيارة عريس جيداء وشيكة، وقال لها إذا الأمور على خير ونلت رضا الطرفين نعلن خطوبتها في العيد.

- ليش قاعد لحالك؟ تعا ناكل كنافة جيداء.

- لا بيكفي حلو ما عاد فيني اكل، تعالي اقعدي جنبي شوي.

وأخبرني بضحكة تحمل نوعًا من السخرية بسر القصيدة التي احتفظ بها لنفسه، ذكّرني بيوم المعرة، إنه يوم لا ينساه أبدًا، وأنا أضحك.

- هلق خليتني اترك الكنافة، مشان تحكيلي عن ذكريات الحب والغرام، وأنا..

توقفت لم أبُح بشيء، شعرت أنه غير مهتم بكلامي، لا أدري ما حلّ به. أخبرني بأنه تألم لما سمعه من خالي، ظل يحكي لي عن الأماكن المحببة لقلبه في القرية. آثار الكنائس القديمة ومعاصر الزيتون والعنب التي تُصنع منها الخمر، كانت دائمًا مصدر إلهامه، وعن قصيدته الأولى التي لم تخرج من جيبه ولا يدري أين ضاعت. تشاجرت معه بنوع من الدعابة لضياع القصيدة، كنت أحاول إذابة هذا الأسى الذي تملكه، سألته عن مضمون القصيدة، أخبرني بأنها قصيدة تصف عينيها التي تشبه الزيتون وشفتيها التي تشبه كرز البارد. لا يذكر منها شيئًا الآن. طلبت منه أن يقرأ على ما كتبه في تلك الليلة، صمت قليلًا وطوى الورقة، ثم نطق بأبيات شعر لشاعر المدينة:

حــالِيَ حــالُ اليائسِ الرّاجي

وإنّمـا أرْجِــعُ أدراجِــي

إذا رَأيتُ الخَـيرَ في رَقْــدَتي

عَذَبْتُهــا ليلــةَ مِعْراجي

إنْ قمتُ من غُبرةِ هذا الثّرى

أهدى إلى خضراءَ مِنراج(*)

كانت أول جمعة في رمضان، اتصلت أنا بعمتي لتعجيل زيارة عريس جيداء، للتخفيف عن شاهين لم يكن لي أي غرض حقيقي يتعلق بجامعة حلب، خاصة أن عمتي اتصلت بالأمس تقول إنه سيأتي بعد لزيارتنا في إدلب في عيد الفطر، شرحت لها حالة شاهين وأني قلقة عليه قالت إن العريس سيسافر إلى تركيا مجددًا قبل موسم عيد الفطر، وأكدت انطباعه أن جيداء عروس رائعة.

صلى شاهين الجمعة وعاد إلى البيت، لكن بسبب استمرار القرى المجاورة في التظاهر، فقد قام المصلون بمظاهرة بعد الصلاة لم يرفضها، لكنه لم يشارك وعاد إلى البيت يصف ما حدث، واصطفاف المصلين عقب خروجهم من المسجد، كما ذكر أنه لا يجيد الهتاف وهذا ليس تعبيرا عن رأيه، يوم السبت التالي خرج أهالي المدينة للتظاهر، مرة أخري وتزايد العدد، غير أن قوات الأمن أطلقت النار على المتظاهرين، وفي يوم الأحد صلى شاهين مع المصلين صلاة الجنازة على شهداء الأمس. عقب الصلاة خرجت مظاهرات كبيرة، كان مشهدًا مهيبًا. عند خروجه من المسجد احتشدوا فوجد

(*) شعر لأبي علاء المعري.

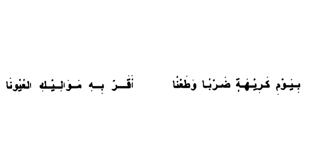
نفسه وسط المتظاهرين يردد معهم الهتافات، فتحت قوات الأمن النار عليهم مجددًا ليسقط شهداء جدد، ويسقط شاهين بين الجرحى، هذا ما قاله لنا شهود العيان.

أصيب بطلق ناري في الصـــدر والذراع، كانت إصابته بالغة، انتقل على إثرها إلى مستشــفى ابن ســينا مع بعــض المصابين، ما حــدث كان فاجعة للجميع، تحول رمضان إلـــى غمّ وهمّ، فكنا نتناوب ذهابًا وإيابًا على المستشــفى، الجميــع جاء لزيارته. أهلنا من تفتناز، وخاطر وظافر عادا من الشــام، وأخته وفاء لا تفارقه، وعابد أخوه، وزوجة عمي عابد تكفلت بإعداد الإفطار يوميًا، وأيهم كان يأتي لزيارته بشــكل مستمر. عشرة أيام بين العمليات والعناية المركزة، كانت هند تقف بجلَد وصبر من أجل إســكاتي عن البكاء وعيناها لا تجفان أبدًا ولكن في الخفاء، جيداء كانت تجلس بجواره طوال الوقت تقرأ له ما تيسر من القرآن، ظافر كان يعلم أنه مفارق الحياة لا مفر، حاول كثيرًا نقله إلى مستشــفى في حلب، تســاءلت كثيرًا هل استســلم شاهين كعادته؟ لم يعافر مثلما فعل مع القصيدة. ومـــا هي إلا أيام ورحل دون أن يدري بأي ذنب قُتِل، ليترك وراءه حســرة وألم الفراق، تلك المشاعر التي لا يجيد أحد وصفها. تظل بالحلــق كلمات لا تخرج ونداء لا وزن لــه، فهو غير موجود ولا يســمع، ثم نتوقف عــن النداء، ولكن يظل هذا النــداء مفتقدًا دائمًا للإجابة، وإشــارة بيدين خاويتين لسلام ووداع، فلا يمد يده للسلام ولا حتى للإشارة.

الفصل الرابع

شال الحرير





بِيَوْمِ كَرِيهَةٍ ضَرْبًا وَطَعْنًا أَقَرَّ بِهِ مَوَالِيكِ الْعُيُونَا



المكان بالنسبة لي يساوي كل الأشياء التي أحبها، تلك البلاطات المتكسرة أسفل بيت عتيق اركلها بقدميّ وأنا أمشط شوارع المدينة.

وجدت أن هذه فرصة مناسبة للحديث إلى أبيهم؛ لأشكو له قرار صديقه في الرحيل إلى الشام، بدأت في شرح له فكرة جيداء في الرحيل إلى حلب، وربما أعدل عن فكرة تأجيل دراسة الجامعة، إلا إذا ذهبت إلى جامعة حلب المحببة إلى قلبي، كانت ردوده منمقة، وبدأت أرتاح وطال الحديث، قال لي إنه لا يوجد مبرر منطقي لأن يترك بلده ويغرّب أسرته، وأنا أعقب بكلام قليل، مستمتعة أنه أقنعني وأنه وعد أن يقنع ظافر، استرسل في الحديث وتحدث بجدية حين أوضح وجهة نظره من موت شاهين.

- ما بقدر لوم الأمن بتعاملهن مع المتظاهرات.

- مو معقول؟!! انت بتأيدهن و هنن يلي قتلوه؟

- أنا مو شايف طريقة أحسن من هي للتعامل مع المتظاهرين، وبرأيي هو غلط كتير لما شارك بهل مظاهرات المدسوسة ويلي قال يعني منشان الحرية، ويلي لحد هلق ما إجانا من وراها إلا الخراب لهل بالبلد.

كنت أسمعه في ذهول، لم أستطع التصديق على كلامه هذه المرة، لا مكان للتكافؤ الروحي في عالم تحكمه أروقة الماديات. في هذه اللحظة تمنيت أن يمسح على حزني برفق، أو يتمسك ببقائي، لكنه طعنني بسكين باردة، كيف أشرح له أن من مات ليس شخصا عاديًا في تعداد القتلى على أيدي قوات الأمن، بل هو الدم الذي يسري في عروقي، ولن أبرر له أنه لو لم يشارك ما قتل أو أنه قتل بالخطأ، كانت آخر مرة أسمع فيها صوته، فقاطرة الحياة تعج بالملوثين والحانقين والذين فسدت حواسهم.

لم أستكمل الأوراق المطلوبة لالتحاقي بالجامعة واتخذت قرارًا نهائيًا بتأجيل الدراسة لمدة عام، فقدت كل رغبة كانت تدفع بي للحاق بالجامعة، لم تعارضني هند فالدخل تقلص لأن الدروس التي كان يعطيها شاهين بعد الدوام كانت السند الأهم في المعيشة، وظافر عاطل يحاول كل يوم إيجاد عمل جديد، ويخشى الرجوع إلى الشام.

مع نهاية أيلول كان الجيش السوري مستمرًا في انتشاره بمنطقة جبل الزاوية، وعزز وجوده بالدفع بمجندين إلى جميع قرى جبل الزاوية، دير سنبل، كفر نوبل ومَعَرَّة النُّعْمان، ليوقف سيل التظاهرات ضد النظام.

مع بداية تشرين الأول أعلن عدد جديد من المجندين انشقاقهم عن الجيش النظامي، تحديدًا ذاعت نشرات الأخبار أنه في الرابع من تشرين الأول دخل لواء من الجيش السوري معارك جديدة مع المنشقين فسقط مزيد من القتلى، وتزايد عدد المنشقين، ليكونوا جيشًا مواجهًا للجيش النظامي، واستمرت المعارك الضارية بمنطقة جسر الشغور. غادرت جدتي إلى ابنها في تفتناز، رغم أن الهدوء عاد إلى المدينة، لكنها فهمت أن ظافر عقد النية للرحيل، حين قال إنه من الممكن أن يؤمِّن عملًا في حلب ولا يفضل تركنا هنا، وربما نعيد التفكير في التحاقي بالجامعة هناك.. بعد انقطاع أخبار باسل.

وافقته هند لأنها ستكون بجوار صديقتها وفاء، خاصة أن خاطر وأهله رحلوا إلى الشام، حسب الخطة التي وضعوها، سنستقر قليلًا في بيت وفاء حتى يتدبروا الأمور، والبحث عن عمل لظافر وعندما نجد منزلا جديدا حينها ننقل الأثاث إليه، في نصف تشرين الأول طلبت هند منا الاستعداد للرحيل إلى حلب.

في تلك الليلة كنت أجمع أغراضي داخل غرفتي، تركت بابها

مفتوحًا، بعد أن انتهيت خرجت أتفقد الوضع في الخارج، وجدت الجميع نيامًا، ذهبت إلى المطبخ لإعداد كوب شاي أشعلت النار لغلي الماء، تركت أصابع يدي تتلمس الأرفف المرصوصة فوقها الأكواب الزجاجية، سحبت واحدة منها فتحت أحد الأدراج وأخذت معلقة صغيرة، وضعت قليلًا من الشاي الجافّ وكثيرًا من السكر ثم سكبت الماء الساخن وأمسكت بالمعلقة أقلب ليذوب السكر.

خرجت من المطبخ باتجاه الطاولة المستديرة، سحبت واحدًا من الكراسـي، تلك الطاولة التي كانت تجمعنا لسنوات لتناول الطعام، والمذاكرة.. نظرت كثيرًا نحو كرسـي شاهين الخالي، خيل لي أنه جالـس مكانه يأكل ويشـرح ويصرخ في وجهي وهو يشـرح لي القواعد النحوية، نظرت إلى الجدران التي تحمل ذكريات أجمل سنين العمر لم نعلق عليها الصور لكنها احتضنت الجلسات والضحكات والصرخات حتى الهمسـات سـمعتها، بينما الدخان المنبعث من الكوب يملأ أنفاسـي مع كل رشـفة، تركته على الطاولة، تحركت بخطوات حثيثة فوق فروع الأشـجار والورود المنحوتة في نسيج السـجادة الممتدة بطول الصالة، والتي ذابت خيوط أطرافها، لكن جزءًا منها مازال محتفظًـا برونقه القديم، ممتزجا بغبار الطرقات التي علقت بنعال الأحذية.

اتجهت نحو الشـرفة المطلة على الملعـب البلدي، فتحت بابها

فمُلِئَــت رئتيَ بهواء بارد، وجدت نفســي أمارس ســطوتي على اللحظات، حلّقت فــوق مدينتي بطائرة ورقية ملونة بألوان زاهية، كتبت علـــى أجنحتها كل كلمات الــوداع. تأملت الملعب الأخضر بأسواره ومدرجاته بأضوائه الخافتة ليلًا، كان دائمًا يعج بالّلاعبين، اســتحضرت صوت ركلات أقدامهم للكرة وصــوت ضجيجهم، وكدت أسمع صوت شاهين وهو يصرخ...

"يلي بيفتح الباب ما بيسكره أبدًا؟ هل الأولاد ما بيتعبوا من اللعب لا ليل ولا نهار؟"

كثيــرًا ما لعب ظافر فـــي الملعب البلدي وهــو صغير، وكان هذا يضايق شـــاهين لأنه يهمل دروســه، لكن كانت أصواتهم في مخيلتي يشــبه أصوات الموســيقى الصاخبة المصاحبة للحفلات الراقصة، حينها انتبهت لشدة البرد، تركت الخيط سبحت طائرتي في الســماء، أغلقت الباب، وعدت مسرعة إلى غرفتي، نمت على ســريري وســحبت الغطاء فوقي، كان هواء روحي يحمل رائحة الثياب والفراش ووبر الغطاء، كل الشواهد تنعى رحيلي بغضب.

***

لا أدري هل أخترت الصمت عمدًا، أم أجبرت عليه لكني صمت كثيرًا، واختار ظافر اختيار باسل فإن نلحق به في مصر، حتى حلب علينا أن ننسى، قام ظافر باستخراج جوزات سفر لنا لأول مرة، وبدأ يخطط ويعد العدة ويتواصل مع باسل وآخرين في مصر كان يأكد لنا إنه الحل الأمثل، فقط كان على هند أن تودع أهلها، فتأخذنا إلى طريق مختلفة بدلًا من الخروج مباشرة إلى معبر باب الهوى، مرورا على معظم قرى جبل الزاوية المُحاطة بالجيش النظامي والحر على حد سواء، ولكن ظافر كان على علاقة بأفراد من الجيش الحر، استقل لنا سيارة وكان بصحبتنا مرشد في الطريق ليُأمّن لنا مخرجًا آمنًا. مررنا على سرجة ودير سمبل وقرية هند القديمة - قرية الكرز - بعد أن سيطر عليها الجيش السوري فلم نستطع زيارتها، وصولًا إلى سراقب، ثم تفتناز. تركتنا السيارة لننام ليلتنا عند أخيها في تفتناز، الجو كان غير مشحون مثل باقي قرى إدلب لوجود مطار عسكري هناك، ومن ثم يسيطر عليها الجيش النظامي بشكل كامل.

جمعت هنـــد كل المؤن في بيتها، فهم أولى بها، وحملت أنا لهم أكياســـا من البازلاء المجمدة التي قمت بتقشيرها الموسم الماضي ولم تُستخدَم، فرحوا بها وأكلنا منها على العشاء، في الصباح الباكر

ودَّعنا أهلنا على أمل لقاء قريب بهم، إذا استقر بنا الحال في مصر سوف ندعوهم، وهم رحبوا بالفكرة. استقل ظافر سيارة أخرى مع مرشد آخر من أفراد الجيش الحر. كنا قد قطعنا أكثر من نصف المسافة، وصلنا إلى إبلين وسرمدة حتى معبر باب الهوى، حيث تركتنا السيارة. كان ظافر على اتصال بآخرين موجودين على الحدود التركية. اقترحت هند المبيت بأحد المخيمات كباقي السوريين لتوفير النفقات، ولم يُبدِ أيٌّ منا أي اعتراض.

استقل ظافر سيارة أخرى إلى مخيم بخشين الذي أعدته السلطات التركية بإقليم هتاي. كان المخيم يشبه المعسكرات، فهو عبارة عن خيام متوازية، ويوجد مسجد ومستشفى ميداني وحضانة أطفال ودورات مياه للرجال وحمامات أخرى للنساء. استقبلنا المسئول عن التسكين بأحد الخيام. حين جاء الليل كان الجو قارس البرودة، وزاد من برودته أنه مكان مرتفع، ظافر وهند كانا منشغلين بالحسابات والأموال التي سيحجزان بها تذاكر الطيران إلى مصر.

أردت الذهاب إلى الحمام ليلًا، المخيم كان مؤمَّنًا من قِبل السلطات التركية التي عُرفت بين سكان المخيم بالهجانة أو حرس الحدود. البرد كان شديدًا خارج الخيمة، ارتديت ملابس ثقيلة جدا، وأصررت جيداء على الذهاب إلى حمام آخر أبعد كان أقل زحامًا لا يدخله أطفال لبعده، كنت صامتة لأنني لم أستطع الرد عليها حينها

شرحت لي مخاوفها من الرحيل، وأنها احتفظت بهذه المخاوف داخلها، هي لا تريد أن تزيد العبء على هند وظافر. طلبت منها التسكع قليلًا بين الخيام. تجولنا بين الممرات وقالت لي:

- طول عمري كنت أتمنى زور تركيا، بس هلق خايفة ظل فيها، وخوفي اني اتركها أكتر بكتير، يمكن لاني خايفة من المجهول، وأنو كيف لح نسافر لحالنا لمصر من دون ظافر؟ شو ما كان يلي لح يصير لازم ظافر يجي معنا.

ابتسمت وربّت على كتفها، كانت خيام اللاجئين تملأ قلبي برهبة خفية، كأنني أتجول داخل بيت كبير مهجور، مثل بيوت الأساطير القديمة، التي تسكنها الأشباح، يحوي بين طرقاته العديد من الغرف المعتمة وأبوابها مغلقة وضاع المفتاح، وأغلقت نوافذه فما عاد يدخلها ضوء الشمس أو هواء نقي، والمحبوسون داخله يجدون الأمل في غدًا مشرق من المستحيلات.

فور عودتنا الخيمة، ارتفعت درجة حرارتي مجددًا، ما كنت أقوى على تحمل البرد الشديد، ظللت بالخيمة، كان الجو ممطرًا طوال الوقت. ذات يوم أحضرت لي جيداء شوربة عدس لأتدفأ بها. دخلتها ذكّرني بالأحلام التي هوت، لكن مذاقها لا يشبه شوربة أم صبا. أوشك العام أن ينتهي، لم يجل بمخيلتي ولو للحظة أن نبدأ

سنة جديدة في مخيم على الحدود التركية، وصبا تدرس بالجامعة في بلد آخر.

حجز لنا ظافر التذاكر، سنصل إلى القاهرة في الخامس عشر من كانون الثاني، لم يحجز لنفسه تذكرة قال حينها أنه يجب أن يترك معنا أموالًا، قال إننا بحاجة للمصاري أكثر من حاجتنا إليه.

كان الجو يزداد بردًا لم أسترد عافيتي بعد، أمي حاولت كثيرًا إسعافي، يكفيها، برد المخيمات وحيرتها، فعلى الرغم من وجود خدمات طبية في المخيم مقدمة من الهلال الأحمر، لكنها لم تسعفني، البرد كان شديدًا والمنطقة جبلية مرتفعة، فالتزمت الخيمة طوال الوقت. أما جيداء فكانت تقضي وقتها في التعرف إلى الجيران في الخيام المجاورة وتستمع إلى حكايات النزوح والضرب المستمر منذ أشهر بريف إدلب خصوصًا في قرى جبل الزاوية.

استطاع ظافر أن يدبر مكانًا آخر للنزول فيه، بيت رجل تركي يتحدث العربية بمنطقة الريحانية. أحضر لي طبيبًا وأخذت بعض المحاليل، وأعدت لي سيدة البيت دجاجة ومرقة الدجاج، تحسنت صحتي نسبيًا في البيت مع وجود التدفئة المناسبة وكانت فرصة أفضل بين الخضرة والهدوء والبعد عن ضجيج الأطفال في المخيم، وقمنا بترتيب أغراضنا مرة أخرى.

يوم السفر اســتقللنا حافلة إلى مطار هاتاي بأنطاكيا. لأول مرة

أزور مدينــة تركية، كانوا يتحدثون بجواري وأنا اســتمع فقط ولا أستطيع مشــاركتهم الحديث، فانشــغلت بالطريق لأشاهد أنطاكيا وشــوارعها والمطر المتســاقط يغسل كل شــيء يغسل الأشجار والشوارع يحجب الرؤية، تراكمت أنفاسي المتكثفة على الزجاج.. رسمت قلبا صغيرا وكتبت داخله اسمي.

في المطار ظل ظافر معنا حتــى حان وقت الدخول إلى صالة الجــوازات، وقف يودعنــا، نظرت إلينا هنــد وكأنها قطعت قلبها لجزأين، طلبت منه مرارًا أن يبتاع سلســلة ذهبية أو إســورة لها ولكنه رفض، قال لها:

- لح إرجع على سورية، وهنيك لح أحسن دبر مصاري سفري، لا تاكلي هم.

حلّقت الطائرة مودعة أنطاكيا باتجاه القاهرة.

***

نمت فور دخولي القاهرة حتى وصلنا للجمعية الشرعية، اخترنا شــقتنا من بين شقق الشــيخ طلعت، خلال يومين اتصلت الحاجة نادية بهنــد تخبرها بتحديد موعد مع طبيب نفســي، وبالفعل جاء الشــيخ طلعت بسيارته الفاخرة وســائقه وكانت معه الحاجة نادية

ذهبنا إلى الطبيب بمنطقة المهندسين. تكفل الشيخ بالحجز ودفع الكشف الباهظ برغم كل هذا الكرم كان لا يزدني إلا بغضًا لم يكن لدي مبررات للكراهية لكنها كانت يقينا بالنسبة لي، دخلت وحدي كما قال الطبيب، طلب مني أن أكتب كل ما أشعر به، حاولت أن أنطق.. خيل لي أنني أستطيع، لكن صوتي اختنق في حلقي، نظرت للورقة وحاول الطبيب الانشغال عني بتبديل نوع الموسيقى، نظرت للورقة لم أكتب شيئًا أبدًا، كتبت اسمي عدة مرات، نظر لي مبتسما، طلب مني الخروج ونادى على هند لتروي له ما حدث معي. قال لها...

أنني مصابة بحالة اضطراب ما بعد الصدمة Pos-trauma-ic disorder، هذه الحالة لها عدة أوجه من الاضطرابات النفسية، منها إصابتي بنوع من البكم الانتقائي لفترة Selective - mutism، وعليها مساعدتي للاتصال بصديقتي صبا بالأردن، وأن تطمئنني أنني أستطيع مواصلة دراستي في مصر، فقط أنتظر حين يفتح باب التقديم للجامعة في الموسم المقبل، لكن لم يعنني كل ما قاله حتى الدراسة رغبتي فيها شحت، كنت أشعر أنني لدي قدرة على الكلام ولكني لا أرغب، الطبيب لا يكذب ولكني كنت أدري بحالي.

حكت هند للشيخ طلعت ما قاله الطبيب، في نفس الليلة جاء لزيارتنا وأحضر معه هدية لي لاب توب موصّل بخدمة الإنترنت وقال هذا كله من أجل عيون عصماء الخضراء، كنت في غاية

السعادة لحصولي على لاب توب لم أحلم به يومًا، سعادة بمزيج من التقزز من مجاملة شيخ وصف عينيّ ولم أخفِ مشاعري، ثم تكفلت هند بالرد...

- ما بعرف كيف بدي أشكرك على كل هل كرم (أو على كرمك).

- متقوليش كده يا أم ظافر، دي حاجة بسطة أن بس مضطر أستأذن عندي شوية مشاغل و هعدي عليكم تاني أي حاجة كلمني.

على الفور قمت بعمل حساب بريد إلكتروني، لكني تذكرت أني لا أعرف حسابها الإلكتروني، اتصلت جيداء بخاطر لتطمئن عليه حكت له أخر الأخبار وأبلغها بالبريد الإلكتروني الخاص به، ونصحني بأن أنشئ حسابا على الفيس بوك، لنكون على تواصل دائم معه، فطنا على الفور وتحدثنا معه مكالمات طويلة على الإنترنت ومع زوجة عمي، حكايات عن كرم الضيافة والدكتور.

أرسل لي خاطر حساب صبا على فيس بوك، أرسلت لها رسالة، وظلت تتحدث معي بالمحادثات المكتوبة طوال الليل، ما زالت صبا وخاطر على اتصال دائم، ووعدها بزيارتها عما قريب في الأردن. نمت لأول مرة منذ زمن بعيد نومًا هانئًا، مع مرور الوقت تحسنت حالتي النفسية، واظبت على العلاج والأدوية، رغم كل شيء بدأت

أبحث عن أيهم من جديد، لكني فهمت من صبا أنه غير مهتم بالفيس بوك، في الحقيقة هو غير مهتم بأي شيء حضوري مثل غيابي، قالت لي صبا إنه مواظب على الجامعة وما زال عند رأيه وما زال يساند النظام لم يتغير، أنا في حقيقة الأمر لم أكن ضد النظام أو معه، مشكلتي أن يكون أيهم ضدي، والحق أنني خسرت شاهين، كانت أهم أخباره أنه انتقل إلى حلب وأقام هناك، يا ليت كنا بقينا بحلب بدلا من بلد الغربة هذا ما كتبته لصبا، كان لديّ حنين جارف لكل اللحظات المنسية، لكنه مضى في طريقه ولم يمسسه الحنين.

بتشجيع من صبا بدأت أبحث على الإنترنت عن الجامعات المصرية والأوراق المطلوبة من الوافدين، والمصاريف ومواعيد تقديم الأوراق. جيداء كانت سعيدة بكل شيء، بالشقة والمكان والبلد وضحكتي التي افتقدتها وبدأت تعود إليّ ولكني انعزلت في عالمي الافتراضي وضعت مسافة بيني وبين ما يحدث خارج غرفتي الجديدة، وحين نطقت وبخت نادية.

***

مع بداية تموز انتقلنا إلى شــقة أخرى في الحي السادس بمنطقة مســاكن عثمان. حين رفضت جيداء زواج الختيار الشايب، أيقنت

وقتها لمـــاذا بغضته، ربما لم يكن تركي الشـــقة مؤلما مثل تركي اللاب توب وانقطاع الإنترنت، لم أحب بالتأكيد شقة مساكن عثمان الفقيرة، كانت الشـــقة بالدور الخامس مكونة من غرفتين وصالة، فرشـــها رخيص وبها ســـرير واحد فقط وصالة صغيرة مفروشة بســـجادة صغيرة ووســـائد بحجم كبير مخصصـــة للجلوس على الأرض، وفي أحد جوانبها طاولـــة صغيرة وُضع عليها تليفزيون صغيـــر بوصلة خارجية، أما المطبخ فكان غير مجهز ســـوى من وجود موقد صغير بفرن يعمل بأســـطوانات الغاز، بعض الأطباق والطناجر، طلبنا من الجمعيـــة توفير ثلاجة، فأحضرها أحدهم لنا بعد أيام. لا توجد غســـالة، ولكن كان من الصعب طلبها، الشـــيء الأصعب هو عـــدم وجود مياه في الصنبور، لا تتوفر إلا في وقت متأخر من الليل، كنا نغسل في هذا التوقيت الأواني والملابس. بعد أيـــام تأقلمنا مع الوضع الجديد، كنا نمـــلأ زجاجات المياه في الليل لاستخدامها طوال النهار، وتعودنا النوم على الأرض، تقبلنا الأمر عن طيب خاطر، فثمن شقة فاخرة من الصعب أن ندفعه جيداء.

في منتصف الشهر كان رمضان على الأبواب. بدأت هند تتعرف إلى الجيران من السيدات السوريات، ذهبتُ مع إحداهن إلى الجمعية الشرعية في انتظار سلة المؤن الرمضانية، لم نكن على علم بأشياء وأخبار كثيرة عن مصر واللاجئين.

قضيت ساعات طويلة من الانتظار، والاستماع إلى الأخبار

والأسعار، قابلت هناك مصادفة الحاجة نادية، دون تردد ذهبت إليها لأشكو لها من طول الانتظار، فجاء ردها قاسيًا:

- احمدي ربك أننا لسه بنأكلكم، دا انتي ربنا ابتلاكي بالخرس من طولة لسانك.

احتقنت من كلامهــا الجارح، وانزويت في مــكان بعيد داخل الجمعيــة، كما أنــزوي الآن على أرض المســرح، رئيس اللجنة لــم يحضر بعد، عدلــت وضع الارتخاء لأرتــاح للنوم في وضع القرفصاء، لامست وجنتي الخشب البارد، وما زلت أنتظر فاجأتني إحدى الفتيات، وأخبرتني أنها من اللاجئين بمنطقة مســاكن عثمان أيضًا، نصحتني بعمل القسيمة الصفراء المخصصة للاجئين والتي يحصلون من خلالها على مســاعدات الأمم المتحدة. وأنه لا يكفي الاعتماد على الجمعية الشــرعية وحدها، روت لي تفاصيل كثيرة عن محاباة الشــيخ طلعت لأسر بعينها، وأنه تزوج من فتاة سورية الأســبوع الماضي، وأن هناك مقرًا آخر في منطقة الجيزة يرعى زواج السوريات من أثرياء، بعد طول انتظار تسلّمت السلة، كانت تحتــوي على أرز ومكرونة وزجاجة زيت. لم أعلّق بكلمة واحدة. وعنــد مدخل الجمعية، قابلت الشــيخ ولكنه لم يرني، خلع الجلباب وارتدى بذلة وقميصًا دون رابطة عنق، وقصّر لحيته.

***

مــع نهاية رمضان وانخفاض معدل الطلــب على أكلات هند، والطبــخ الذي امتهنتــه واتقنته للبيع، ذهبت هنــد بداية أيلول إلى الجمعية الشــرعية وحدها رفضت النــزول معها، للحصول على السلة الشهرية للاستفادة منها، بعد أن تقلص العمل والطلبات بنهاية شهر رمضان، حاولت مقابلة الشيخ طلعت، ولكنه رفض، متحججًا بانشــغاله، عادت إلــى منزلها في غاية الأســى فحاولت الاتصال بالحاجة نادية مجددًا.

- حاجة نادية، أنا كتير بعتذر منك، بس والله الشغل ما عم يكفي لتأمين كل احتياجاتنا.

- هند، أنا أعتبرك أختي، هشوف الشيخ طلعت واتكلم معاه نخصصك مبلغ كل شهر.

- لا أنا مو قصدي مصاري، ما بخبي عليكي يا حاجة نادية يعني بصراحة نحنا ناقصنا كتير شغلات بفرش البيت، حتى كنت عم فكر اني غير البيت، المي طول اليوم مقطوعة.

- عندك بنتين ومش عارفة تقنعي واحدة منهم بالجواز؟

- انا ماعندي مشكلة بالعكس بتمنالهن انهن يتزوجوا وينستروا، بس الشيخ طلعت ما بيناسب بناتي.

- عندي عريس مناسب لعصماء.

حاولت هند أن تخبرني بما قالته لها الحاجة نادية، صرخت في وجهها، وتدخلت جيداء لتهدئة الأمر.

- انت مو فهمانة شي، هي بدها تنتقم مني.

لم تتوقف حاولت هند معي مرارًا، فقط من أجل إرضاء نادية، كانت تقتنعي أن الظروف تغيرت وأن أصر أكثر على الرفض، مع بداية تشرين الأول باءت محاولات العثور على ظافر جميعها بالفشل، منذ اختفائه بنهاية رمضان، جاء العريس مع الحاجة نادية لزيارتنا، شاب لم يتجاوز الثلاثين يدعى أسامة قوي البنية وسيما، لكنه ملتح بلحية غزيرة أخفت ملامحه، تخرج في كلية التجارة، يعمل محاسبًا في شركة استيراد وتصدير، ترك نادية تقدمه.

- أسامة دا بعتبره زي ابني شاب مجتهد ومحترم، مش هخبي عليكم، هو معندوش شقة. أهله في الفيوم هو مقيم مع زمايله في شقة بشارع الملك فيصل.

- لا تأخذيني يا حاجة نادية، بس وين لح يسكن لما يتزوج؟

- هنـــا معكم، أنتـــم محتاجين راجل، بعد الجـــواز هيتكفل بكل حاجة.

- حاجة نادية، ما عنا اي رد لنشوف رأي ظافر بالاول.

ذهبت مع جيداء إلى باسل في مول العرب، حيث يعمل، تركتهما قليلًا لأشتري حلوى في الحقيقة أنني أحببت باسل منذ أول مرة رأيته، لديه شهامة مختلفة، سعدت لتعلق جيداء به لأول مرة يكون لها اختيار حقيقي، لذا لم أتردد أبدًا في أن أخبره بالعريس الذي تقدم لخطبتي، وعن الحاجة نادية وبغضها لي، ثم عدت واشتكيت له أني زالت صغيرة ولا أفكر في الزواج، كنت أخاف من استسلام هند وحاجاتنا للمال، والأهم أنه لم يعثر على أي أثر لظافر، ربما يأتي لنجدتنا:

- عصما، انا عم حاول كل المحاولات للاقي ظافر، خاطر قلبي انو راح على إدلب اليوم.

- ظافر مختفية أخباره من شهر، وخاطر هلق لخطر على باله يروح على إدلب، كتر خيره والله.

- عصما، إهدي، مابتتخيلي قديش الامور معقدة هنيك.

كانت الدقائق تمر ببطء، قضينا اليوم في انتظار اتصال من خاطر، جاء باسل في آخر الليل، ظل صامتًا لأكثر من نصف الساعة، أعدت له جيداء كوبًا من الشاي، رفض مد يده إلى الكوب الذي تحمله، نظرت إليه في ريبة كأنه يخفي شيئًا ما، وفي الآخر نطق:

- حكى معي خاطر اليوم بعد ما راحت جيدا بشي نص ساعة.

- طمن قلبي يا إبني، ما يكون أعتقلوه الأمن؟

- لا.

ظل صامت، وأمي لا تتوقف وهو لا يرد.

- لا لاتقولها.

فتح هاتفه الذكي الذي كان يحمل أحد المقاطع المصورة، جلسنا بجواره نحدق في الشاشة، مقطع مصور للجيش الحر، وجدنا جثة ظافر بين الجثث التي عثر عليها داخل المركز الثقافي بمَعَرَّة النُّعْمان، صرخت هند صرخة مدوية، وسقطت جيداء مغشيًا عليها، وانزويت جانب الحائط أبكي، وقف باسل مكتوفًا لا يدري ماذا يفعل؟! مضى يعتصره الألم وتركنا لاستيعاب ما حدث، صارت كل الأشياء موجعة، فقَد صديقًا جديدًا، وهناك آخرون في المعتقلات وعائلته ما زالت في الشام ولا سبيل للعودة.

ظل يبحث عن أسباب موت صاحبه، أُشِيع أن المركز أُستخدِم من قِبل الجيش النظامي كمعتقل للتعذيب، كثُرَت الأقاويل حول انضمام ظافر للجيش الحر، وأنه قُتِل بسبب تورطه في قتل مجندين من الجيش النظامي في مواجهات قادها مع مجموعة من الجيش

الحر، لكن الحقيقة دائمًا تُدفن مع أصحابها، والواقع أنه مات.

راحت هند في غياهب الفاجعة، فلم يعد القلب يتسع لتطليق الأحزان على جدرانه، سيفتشون يومًا عن رأس الشاعر المنحوتة ولن يجدوها، لن يتذكروا أنها في يوم بعيد علقت المدى بأحلامها أمام التمثال الحجري، لكننا سنظل نطارد أنفسنا في الطرقات إذا ذهبنا يومًا باتجاه مغاير فإن دروب الرحيل تبتلع سالكيها، ومن يعد فإن رجوعه سيكون مُحملًا بخيبات الأمل، فقد مات ابنها الوحيد أول فرحة في عمرها ليلحق بأبيه ولم تودعه.

***

رفضت بالصمت كعادتي، منذ أن مات ظافر سقطت في صمتي مرة أخرى، كنت ألوم نفسي كثيرًا من فرط الأنانية، عندما طلبت مني هند الذهاب للصيدلية لشراء حبوب لمنع الحمل كتبها لي على ورقة، كانت خطواتي ثقلية مليئة بالجبن حتى من عدم قدرتي لمساندة جيداء لتقول "لا".

أمام مصيرها المحتوم أصرت جيداء أن أذهب معها إلى الصالون، وأصرت على اصطحابي معها، في الطريق لم يتحدث أحد، نادية زاد بغضها لي، بعد إصراري على الرفض، وقامت

بإقناع أسامة بالزواج من جيداء وهو بطبيعة الحال لم يبدِ أي اعتراض، قالت لنا ما قالته له ربما عصماء أجمل، لكن جيداء ليست جميلة فقط بل مطيعة أيضًا.

فور وصولنا إلى الصالون اصطحبت عاملة جيداء إلى غرفة في الداخل لإزالة الشعر الزائد، وجلست في الصالة الخارجية في انتظارها تصفحت المجلات الموجودة على الطاولة التي أمامي، نادية كانت تتحدث إلى صاحبة الصالون، وفوجئت كونها سيدة سورية ثرية، افتتحت صالونًا للتجميل في مصر بعد اندلاع الحرب هناك، السيدة كانت من اللاذقية، وتعمل معها فتيات سوريات، خطر ببالي لماذا لم توفر نادية لنا عملا بدلًا من الزواج؟ حاولت السيدة الحديث معي، عن سورية تارة وعن الشواطيء هناك هل أعرفها.. أزورتها، لكنني لم أرد، هززت رأسي بطريقة مقطبة وبدأت أنصت لأطراف الحديث الدائر مع نادية:

- لا، العروسة هتجوز شاب مصري، بيشتغل محاسب.

- عرفتي يا حاجة نادية، الشيخ السعودي بعد ما طلق خولة، إجى إمبارح لهون لعندي وقال شو بدو مني جبلو عروس تانية.

- والله، أنا عندي عروسة، لكن رأسها ناشف، احكي لها عن السوريات اللي اتجوزوا من العرب والشيوخ المصريين والعز اللي عاشوا فيه، ختي شاب مكافح مش موافقة.

- قصدك هل أمورة الحلوة يلي ساكتة وما حابة تحاكينا.

- هي لا بترد عليكِ ولا على أي حد بيكلمها، لكن مسير ها تعقل وتعرف مصلحتها.

شردت في كلامها، وهما مستمران في إغوائي بالمال والثروة التي حلت على كل من زُوِّجن عن طريق نادية، حتى خرجت جيداء من الغرفة، ترتدي شيئًا يشبه المعطف، أخبرتني بأنها دخلت حمام بخار لمدة 10 دقائق، وجاءت فتاة تصفف لها شعرها، بدأت أفكر في كلام نادية، هل كان من الأفضل أن تتزوج جيداء الشيخ طلعت بدلًا من أسامة؟

لقد خســرنا كل شـــيء، الوطن والانتماء، الأب والأمان، الأخ والســند، حتى باســل لا يمكنه الوقوف إلى جانبنا، في تلك اللحظة أدركــت أن الحلم القديم ما عاد يراود خيالي، اســتكمال الدراســة والجامعــة، الواقــع اختلف والهروب إلى الخيــال أصبح جريمة، لا بد من إعادة النظر في تقييم الأمور والتصالح مع القدر المحتوم لا مفر.

***

بعد صلاة المغرب عدنا إلى البيت وقد أعدت لنا الحاجة نادية الوليمة، كنا تائهات كيف نحتفل وكأن ظافر لم يمت، انزوت هند وجلست بجوار أم عزير في موقع المشاهدة، تركنا الساحة لنادية تفعل ما تشاء، توزع الطعام على أهل أسامة والشيخ طلعت ومن معه، جلست بجوار جيداء لا أصدق أنها ضحت من أجلي وستتزوج هذا الرجل الغريب، مع أذان العشاء انصرف الشيخ طلعت للذهاب إلى المسجد وأخذ أسامة حتى يصلي العشاء.

حاولت أم أسامة الحديث مع جيداء، لكن التواصل كان صعبًا للغاية، هي سيدة ريفية بسيطة، لم تكن تفهم لهجة جيداء السورية، ولكنها عاملت أمه بكل لطف، فهي سعيدة حقًا بزواج ابنها ولا تدرك حقيقة الأمور، سمعن طرقًا على الباب، توقعنا عودة أسامة فاتجهت نادية صوب الباب لتفتحه:

- يا هند، في واحد على الباب اسمه باسل، بيقول أنه صاحب ظافر.

تجمدت جيداء فتحت نادية له الباب ودخل، ظل ينظر إلى الجمع باستغراب.

- خالتي أم ظافر، ليش ما عم تردوا عليّ حاولت اتصل فيكن كتير.

- معلش يا ابني، كنا ملتهيين بزواج جيدا.

- (صارخًا في وجهها): شو عم تقولي يا خالتي، كيف جيدا عم تتزوج وأخوها ما صار له شهر متوفي؟

***

غادر الجميع، دخلت هند إلى غرفتنا، ودخلت جيداء وأسامة إلى غرفتهما، كما حكت لي كي أكتب، جلست بجانب من طرف السرير وأدارت ظهرها له، كان يتحدث إليها، وهي لا تسمعه، يسألها عن ملابسه وأين وضعتها، وهي لا تسمع سوى صوت باسل ووجهه الغاضب، وهو ينظر إليها، ونادية تزج به إلى الخارج في عجل قبل عودة أسامة من المسجد، وهو يسبها.

- يا قوادة، عم تشتغلي لحســاب الشيوخ لتاجروا ببناتنا؟ واللــه ما لح أتركن وحسابكن معي عسير.

التفــت إليه وهي تــدرك أنه ليس زوجهــا، وأن كل ما يحدث كلبوســا، نادية كما وصفها قوادة، مــات أخوها مقتول، وتزوجت رغمًــا عنها قبل مرور أربعين يوما علــى وفاته، أذكر أنني كنت أتسآل أي إيمان يتحدثون عنه، وهل توجد الرحمة في سواد قلوبهم،

كل ما قاله باسل هو الحقيقة، حاول أسامة الاقتراب منها والجلوس بجوارها وهي تبتعد.

- جيدا، أنا عارف إن جوازنا جه بسرعة، خصوصا أني تقدمت أختك في الأول، ولكن ربنا وفقني معكي وأنا مبسوط.

- انا ما بحبك أبدا، ومو بس لهي الأسباب، لا تحاول تقرب مني أكتر من هيك، أنا بحب زلمة تاني.

قالتها وهي تعرف أن ما قالته جريمة ستعاقب عليها، ولكنها ما عادت تحتمل أن يكتمل الكابوس إلى آخره، محاولة بائسة للاستيقاظ لكنها جاءت بعد فوات الأوان، كانت نظرتها وكلامها كوقع سوط الجلاد عليه، قام من جلسته وانفعل واحتقن وجهه، طوق ذراعيها بيديه، وأجبرها على الوقوف أمامه، حتى تمكن من رؤية وجهها، ثم رفع يديه اليمنى وصفعها، فسقطت من جديد باكية بحرقة:

- في واحدة محترمة تعترف لجوزها أنها بتحب واحد تاني، قال رسول اللـه في حديثه الشريف: "إذ دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء لعنتها الملائكة حتى تصبح"، قومي اغسلي وشك واستعيذي باللـه من الشيطان الرجيم ولا تغضبي اللـه يا جيداء.

وأمســك بذراعيها من جديد، وأجبرها علـــى الوقوف، فتح لها الباب فخرجت من الغرفة وأغلــق الباب خلفها، كنت انتظرها في الخارج، احتضنتها، وقلت لها إنني ســمعت ما حدث، كانت خائفة وتوقعت أنه سيتشــاجر معها، دخلت إلى الحمـــام، فككت طرحتها وتركت شعرها ينسدل، وتفحصت وجها في المرآة، وجدته متورمًا وســاخنًا وطبع عليه آثار احمرار من وطأة أصابعه، غســلته عدة مرات بمــاء بارد، طرقت الباب عدة مـــرات بصوت خافت حتى لا يشــعر بوجودي معها، ثم زاد طرقــي من قلقي وتأخرها، حتى خرجت وظهرت عليها مظاهر الإعياء.

وَإِنَّ غَـدًا وَإِنَّ الـيَـوْمَ رَهْـنٌ   وَبَعْـدَ غَـدٍ بِمَـا لاَ تَعْلَمِينَـا



أيقظتني جيداء، تلعثمت كثيرًا وهي تقول لي إن أيهم لحق بظافر، تركتني وحدي أبكي. اعتقدت يوم مقتل ظافر أن الدموع قد انتهت أو فقدت حرارتها بعد أن أصبح البكاء طقسًا يوميًا، لكن الدموع كما هي، مثل الكي بالنار التي تحرق بها الجروح لتلتئم، الأمر لم يعدُ أكثر من مجرَّد محاولة للحلم، لا هو بالعشق ولا هو بالحب ولا هو بالصداقة، لكنه الدم النازف على الطرقات، نسيت احتقاني منه يوم قسى على في موت شاهين، تركت له مسافة للعودة محاولةً التشبث بالبراح المُتَخَيل الذي تأوي إليه الروح في عزلتها. مات أيهم إثر تفجير إرهابي قام به مجهولون بجامعة حلب بكلية الهندسة المعمارية، لكن الحياة التي ينالها الإنسان هو أن يبقى حيًا في ذاكرة الآخرين. محاولة في اقتناء الخلود بعد الموت، فلا يغيب الغياب المطلق.

- عصما، افتحي الباب، عايز أتكلم معاكي.

طلبت منه جيداء أن يتحدث إلي، حاول أسامة عزائي وتهدئتي في مقتل أبيهم، كانت أول مرة تطلب منه جيداء طلبًا كهذا، وشعر بسعادة وبعض الثقة المزيفة في علاقتهما، طرق باب الغرفة الثانية ردت هند، قال لي إنه يريد الحديث معي، رفضت في البداية وقالت له هند إني نائمة، بعد إلحاح منه، اعتدلت من رقدتي، فدخل وطلب أن يجلس معي بمفرده.

- عصماء، أنا عارف إن اللي حصل شيء مخزن، وكلمات العزاء ملهاش معنى.

كنت أنظر إليه في ريبة، كيف أصدق أن هذا الوحش كان يريد الزواج مني، فلم تسلم منه أختي، فاعتدى على أحلامها ودمر حياتها، وحوّلها إلى جثة تسير على قدميها، يريد أن يرتدي ثوب الحمل الوديع ويفتعل مشهدًا دراميًا مليئًا بالمشاعر المزيفة.

- عينكِ بتقول إنك مش ما صدقاني، أنا حزينت بجد لما سمعت الخبر، عصماء هقولك سر مقولتوش لأختك

نظرت في عينيه، حاولت أن أراه بطريقة مختلفة، أو أسمع لحظة صدق منه.

- أنتي عارفة أني حافظ للقرآن الكريم من صغري درست في المعهد الأزهري عندنا في الفيوم، كان لازم أدخل جامعة الأزهر دخلت كلية التجارة، أنا كنت متحمس جدا واشتركت مع الطلبة اللي شاركوا في العرض العسكري للإخوان المسلمين في جامعة الأزهر، قوات الأمن قبضت عليا، مفيش حد حقق معايا افتكروا بعد شهرين، السجن كان ظلمة وبرد، والليل والنهار كانوا سواء، نقولونا زنزانة أكبر، كنت كل يوم الصبح أقول دا آخر يوم، كان بيدخل من بين قضبان الشباك الحديدي شعاع شمس يضرب في وشي، أفتح عينيَّ عليه وأحمد اللـه أني لسه عايش، وأقول إن بكره يوم جديد.

لم يتسلل إلى قلبي تجاهه أي نوع من الشفقة، حتى طريقة حكيه كأنه كان مجبرا على الكلام، لم أكن على دراية عما يتكلم وأي عرض عسكري ولماذا؟ ولم أهتم بالتفاصيل، استرسل قال إن اللـه عوضه بأسرة وزوجة صالحة، وأخت مثلي شيء مضحك حين اعتبرني أخته كان يريد الزواج مني قبل شهرين، ظل شيئًا ما داخلي يرفض هذه المشاعر، ما زال هناك شيء يزعجني إذا كان معي في نفس المكان، أخبرني بأن الأمور ستسير على ما يرام، يستعد خلال أيام للاحتفال بالذكري الثانية للثورة المصرية، وأن اللـه نصر عباده المؤمنين بالحق.

***

وكأن جيداء كانت تعلم أن الخلاص لن يأتي إلا على يد باسـل، أعددنا أغراضنا وانتظرناه، قبيل أذان الفجر كان كل شـيء جاهزًا للرحيل، جاء باسـل ومعه صديقه وسـائق مصري بسيارة نصف نقل، وجد شـنط الملابـس بانتظاره أمام البـاب، وكراتين جمعنا فيها الأواني وأدوات المطبـخ، والأغطية والمفارش وطويت عند المراتب، طلبت عند أن يحمل الغسـالة لأننـا بحاجة إليها، وكنت مصرة على حمل التليفزيون معنا، كنا نتحرك بحذر حتى لا يستيقظ الجيران، فيما عدا أم عزيز كانت تساعدنا، ووقفت معنا، وزوجها حمل مع باسـل الأغراض في السيارة التي يعمل عليها أيضا، أهم شيء أن نرحل قبل أذان الفجر حتى لا يرانا المصلون الذاهبون إلى الصلاة، فالهارب من السجن قبل انتهاء فترة العقوبة، يظل ملاحقًا من الجميع حتى لو كان بريئًا.

شقشق الصباح، وقد وصلنا إلى الشقة التي يسكنها باسل، ورتبنا أغراضنا في غرفة خاوية، وترك لنا باسل غرفته، وانتقل إلى غرفة صديقه، أعدت جيداء الإفطار الذي أحضره صديق باسل، من الفول والفلافل المصرية، وبعض الجبن، وشاي بالحليب، ونادت عليّ، كنت جالسة في الشرفة، لأكتشف المكان، جلسنا نتناول الإفطار على الطاولة ونشاهد التليفزيون في راحة، مذاق كل شيء كان مختلفًا، الضوء القادم من النوافذ أكثر إشراقًا، الهواء أكثر نقاءً، الماء المتدفق من الصنبور كأنه ماء قادم من نهر لا ينفد.

ذهب باسل وصديقه إلى العمل، دخلت جيداء إلى الغرفة، تمددت على السرير، وراحت في نوم عميق لم تنعم به منذ سنين، هند نامت أيضًا على السرير المقابل، أما أنا فعدت إلى الشرفة، الحي مميز بالفعل، كأنني أستمتع بوجودي في مصر لا أراها وأنا تحت سطوة أي من هؤلاء المزيفين، كنت أشاهد الجزيرة التي تتوسط الشارع تذكرت الملعب البلدي وكم افتقدته وجامعة حلب وملاعبها وكل شيء طاله الدمار في سورية، وطلعت رأسي ونظرت إلى الناصية المقابلة، وجدت نادي زايد الرياضي، يا الله وكأنها كانت أمنية من الجنة، دون أدنى تفكير، أخذت كيس نقود هند، وذهبت ورحت أبحث عن بائع خضروات وفاكهة، وتعاملت معه بالإشارة وتجاوب معي، اشتريت خضارًا وكوسة، وتفاحًا وموزًا، عدت وأيقظت هند دون أن تشعر بي جيداء، طلبت منها أن تعد لنا كوسة محشية، دخلت هند إلى المطبخ بحنين جارف لإعداد الغداء، وكأنها عائدة من رحلة شاقة إلى وطنها، ساعدتها لنعد طعامًا مميزًا احتفالا بالهروب.

عندما عاد باسل وصديقه، كانت طاولة الطعام بانتظار هما، الكوسة المحشية بالأرز، وحساء الطماطم، كان أطيب طعام عرفه باسل وصديقه منذ قدومهما إلى مصر، هكذا بالغ في وصف فرحته، بعد الغداء أعدت لنا جيداء القهوة، وبعدها تناولنا الفواكه، وطلب باسل منا الاستمتاع باليوم دون التفكير في الغد.

***

باسل ظل بجانبنا خطوة بخطوة وجد لنا شقة مؤمنة بمنطقة بيت العائلة، منطقة أكثر رقيًا.. السوريون هنا يدفعون الإيجار بعيدًا عن استضافة الجمعية الشرعية ويعملون في مهن مختلفة، أهم شيء أسعدني وقتها أن باسل أقنع جيداء بالعمل، لكن الأحوال كانت تضيق وعمل جيداء لا يكفي لسد الحاجات، خصوصًا أن شغل هند صار من الصعب القيام به حتى لا يتمكن أحد من الزبائن الوصول إلى محل إقامتنا الجديد، استغلت جيداء حب مديرة المحل، ووفرت لي عملًا معها في نفس المحل الذي تعمل فيه، واقتصر دوري في العمل على التنظيف وترتيب الملابس على الأرفف، ولا أتعامل مع الزبائن مطلقًا، بدأت أتحسن نسبيًا بسبب انشغالي بالعمل.

كان ذلك اليوم في منتصف آذار، جيداء لمحتها في الخارج كانت تتحدث مع باسل ثم اختفت معه فجأة. لأول مرة أكون وحدي في المحل، دخلت سلمى إليّ في ذلك الوقت

- عندك (Sleeping Mask)؟

أومأت برأسي

- قناع للعين وقت النوم.

إشارة لها عن مكانه.. سألت عن جميع الألوان، أدركت سلمى

أنني بكماء، فبدأت تحدثني بلغة الإشارة، كتبت لها على ورقة أنني أسمع جيدًا ما تقوله، لكنني لا أتحدث، فبدأت حوارًا طويلًا معي، كيف أسمع ولا أتحدث؟! فعادة ما يكون البكم مصاحبًا للصمم. شرحت لها شرحًا مبسطًا أنني أمر بحالة نفسية سيئة، أن مرضي مرض عرضي، كتبت لي سلمى على نفس الورقة أنها ممثلة "مايم"، فلم أفهم ماذا تقصد، شرحت لي شرحًا مبسطًا أن المايم هو فن التمثيل الصامت، رحلت سلمى حين نادى عليها "كريم" الذي كان ينتظرها في الخارج، أشترت قناعا للنوم أبيض مطرزا برموش سوداء، وهي تودعني قالت لي إنها مسافرة خلال يومين لعرض مسرحية في أسوان، لذا جاءت لشراء القناع لترتديه في قطار النوم، وعدتني بمجرَّد عودتها إلى القاهرة ستتواصل معي لمساعدتي، تبادلت معها رقم الهاتف. لسببٍ ما كنت سعيدة بهذا اللقاء بشكل لافت، وعندما عادت جيداء إلى المحل كتبت لها كل ما حدث وهي في الخارج، وصفت لها شكل سلمى، شعرها أسود قصير يغطي رقبتها فقط وملامحها دقيقة، ترتدي نظارة طبية سميكة لونها أحمر.

لم أكن أمتلك هاتفا خاصا بي، تبادلت مع سلمى الرقم الخاص بجيداء، ظلت ترسل رسائل عبر خدمات الإنترنت الخاصة بالهواتف الذكية وتبادلني الرد وترسل لي صور العرض.

أبدت جيداء ضيقها من استخدامي هاتفها طوال الوقت، فتوقفتُ

عن ذلك، لكنها كانت مجرّد حيلة حتى فاجأتني يوم الإثنين منتصف نيسان، لم يكن يوم إجازة، لكن جيداء طلبت إجازة، أعدت لنا غداءً كوسة محشية كما يحبها باسل، وعزمته بالطبع وأهدتني هاتفًا جديدًا تقاسمت ثمنه مع باسل. وفي المساء اصطحبتني إلى المدينة، ركبنا الميكروباص باتجاه الجيزة، وعند وصولنا إلى ميدان لبنان، استقل باسل تاكسي إلى دار الأوبرا. كنت ألح على جيداء في السؤال بالإشارة والإيماء إلى ملابسنا هل سنحضر عرضًا للأوبرا بهذه الملابس غير المناسبة؟ ظلت تقول لي...

- ما تقلقي لح نقعد بشي كافيه جوا الاوبرا.

عند وصولنا اتصلت جيداء بسلمى دلتها على المكان، استقبلنا كريم عند الباب الرئيسي لساحة الأوبرا، اصطحبنا إلى حيث تنتظرنا سلمى جالسة على المقهى المفضل لهما، مقهى الهناجر الموجود في الساحة الخلفية للأوبرا، المقابل لمسرح الهناجر. لم أصدق المفاجأة. وجدت كعكة مقسمة إلى جزأين: جزء بالفواكه الموسمية، وجزء آخر بالشوكولاتة، أشعلوا شمعة عيد ميلادي التاسع عشر، أطفئتها بسعادة، لكن دون أمنيات، فما هي أمنيات لاجئة لم تحجز تذكرة العودة بعد؟! قالت جيداء...

- كل سنة وانتي سالمة.

فهمت من حديثهم أن سلمي كانت على اتصال بجيداء بعدما سحبت مني الهاتف لفترة، وشرحت لها حالتي والظروف التي مرت بنا.

جلسوا يتحدثون عن حكم الإخوان المسلمين في مصر والاضطرابات والدعوات إلى التظاهر، وتعنت الرئيس والترقب والحيرة من القادم، ثم انتقلوا بالحديث إلى كيفية تعرف سلمى وكريم، وبدأت سلمى في الثرثرة. تخرجت في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، تواصل دراستها في الجامعة وتعد رسالة الماجستير عن الدراما والمسرح...

- كريم زي بالضبط ممثل ومخرج مسرحي، اتخرج في كلية الآداب جامعة حلوان قسم مسرح.

سألتها جيداء، كيف تعرفت إلى كريم؟ أجابت في إحدى المسابقات التي تقيمها الجامعات عن العروض المسرحية، عن أول تعارف جاء بعد شجار ومازال مستمرا على كل صغيرة وكبيرة، الجميع صمت وهي تتحدث دون توقف، اكتشفنا كم هي ثرثارة. حتى مر عمرو بجوار الطاولة ليقطع حديثها

- سامع صوتكِ من بُعد، الله يكون في عونك يا كريم.

- (ضحك الجميع وردت جيداء) بس دمها خفيف.

كان شـــابًا أسمر طويلًا نســـبيًا بملامح مصرية، عيون سوداء ولحية خفيفة، عرَّفته سلمى على الجميع وكما وصفته

- أســـتاذ عمرو مخرج مســـرحي، وينســـب إليه القول المأثور ما الدنيا إلا مسرح كبير.

تعالت الضحكات، ثم سحب كرسيًا وجلس بجوار سلمى، ومقابل باسل. قدمت له جيداء قطعة من كعكة الشوكولاتة، ارتاح في مجلسه وبدأ الحديث عن نفسه بجدية، هو صديق كريم

- اتخرجت من كلية الحقوق وكنت باشارك في عروض الجامعة، وبعد التخرج درست بمعهد الفنون المسرحية باشتغل هنا في مسرح الهناجر، مسئول عن السينوغرافيا - تنفيذ الديكور والإضاءة في المسرح - ومخرج مسرحي.

تبادل حديثًا جانبيا مع باسل وتعارفا على بعضهما، وبدأ باسل في الحديث عن حكايات الحرب الأهلية في سورية، ولم يتطرق إلى موضوع اعتقاله، قال إنه اضطر لأسباب الحرب الذهاب إلى لبنان ومنها إلى مصر، وحكى له عن حياته في مصر وعمله في محل شهير لبيع الأجهزة الإلكترونية لأنه العمل الأنسب في مجال تخصصه.

ظــل هذا اللقاء راســخًا فــي أذهان الجميع، حتــى تكرر عدة مرات بتنســيق أيام الإجازات، تعرفنا أكثــر على المدينة بعد نحو عــام ونصف العام، لم تكن لنا أي صلة بها، كان تخليص الأوراق الرســمية يتم في مدينة أكتوبر. أحببت الأصدقاء الجدد، وفي أحد المرات أقنعتني ســلمى بالانضمام إلى الفرقة.. إنها علاج حقيقي، وعدتها حضور بروفة العرض القادم.

تعلمت كيف أتحرك بشكل أسهل داخل المدينة، كنت أستقل حافلة إلى ميدان التحرير، وأستمتع وأنا أشاهد الباعة والزحام المبالغ فيه، حسب الاتفاق قابلت سلمى هناك، ثم ركبت معها مترو الأنفاق إلى محطة مترو أحمد عرابي، في الطريق توقفت سلمى لشراء ساندويتشات فول وفلافل للفرقة قالت لي...

- اتعودنا نأكل الفول والطعمية قبل البروفات مستحيل نجوع لتاني يوم.

كان المطعم في الشارع الموازي لشارع عماد الدين، وبعدها اتجهنا إلى الشارع، دخلت معها إلى بناية ضخمة وقديمة أمام مسرح عماد الدين، بها ساحة كبيرة تضم عدة مبانٍ، مسجد في مواجهة المدخل، أعمدة رخامية، تدل على فخامة المكان رغم عتقه، صعدت معها في المصعد، حتى توقف المصعد في الدور

الثالث، وجدت باب أستديو عماد الدين. أستديو قديم، دخلت تبعتها سلمى قال لنا المسئول أن القاعات اليوم مشغولة وأشار لها بأصبعه إلي أعلى، ابتسمت ثم خرجت، تبعتها و هي تصعد سلمًا خشبيًا، دخلت إلى قاعة مكان استقبال بمقاعد متهالكة، قالت لها...

- المكان دا اسمه نادي إيديال للألعاب الرياضية.

استقبلنا الرجل المسئول عن الصالة، رحب بسلمى، ودلها على الغرفة التي استأجرها كريم، المكان كان قديمًا وفقيرًا جدًا، لا توجد بها أي ألعاب رياضية إلا في ممر صغير، أجهزة معدمة، دخلت معها الغرفة، كان كريم في انتظارنا، كانت حوله أوراق مبعثرة على الأرض، قال إنها أوراق النص المسرحي.

جلس في انتظار باقي أعضاء الفرقة، تناولنا الطعام، شرح لي أن هذا المكان يأتي إليه معظم الفرق المسرحية للتدريب، وهو خاص بشركة إيديال - شركة مصرية متخصصة في صناعة الأجهزة المنزلية - لكن بعد قانون الخصخصة تخلت الشركة عن دعم المكان، وهم يستأجرون غرفة لعمل البروفات، وطلب مني التركيز في بروفة العرض فإذا أحببت المايم يمكنني المشاركة معهم في عروض قادمة، وأشارت له في سؤال: "ما هو المايم بالتحديد؟!" كان كريم عاشقًا لهذا الفن، قال...

- عصما لازم تفهمي كويس إنك تتعلمي، مش علشان عايزة تبقي زي سلمى.. الموضوع مش بالبساطة دي، دا فن عريق، مش مجرد بروفة مضحكة، تقرري بعدها.

- (ردّت سلمى) كريم ايه الصعوبة دي؟ ماتخوفش عصما هي عندها استعداد تجرب.

- سلمى ما تفهميش من كلامي لازم تكون فاهمة إننا مش بنلعب.

- آسفة كريم عنده حق، الفن دا مش ساخر هوّ فن حقيقي.

- عصماء أنا مش قصدي، لكن أرجوكي تكوني جادة، لأنك ماتعرفيش ايه فن المايم، يمكن أول مرة تسمعي عنه.

بطريقة مبسطة بدأ يشرح على ورق، المايم هو نفسه فن البانتومايم، وإنه منذ قديم الأزل، ويُرجّح أنه يعود إلى عهد الفراعنة، وبالتأكيد مرَّ هذا الفن بمراحل تطور كثيرة، فقد وُجِدَت مشاهد لعدد من المهرجين على المعابد الفرعونية، إنهم مهرجون يعيدون تمثيل المعارك للملك من أجل التسلية، وعرفته أيضًا الحضارة الإغريقية، لأن الجمهور كان ينفر من الأصوات المرتفعة داخل المسارح، فبدؤوا في تقديم عروض صامتة، وصولًا إلى مرحلة السينما الصامتة في بدايات القرن الماضي، وكان رائدها "تشارلي شابلن".

قاطعته بإيماءة من رأسي، أني أعرف تشارلي شابلن.

سئلني بالتأكيد الجميع يعرف تشارلي شابلن، إنني لم أكن أعرفه، لكني ابتسمت ففهمت سلمي وابتسمت، وكريم لا يتوقف، كانت شهرة هذا الفن من خلال سينما تشارلي، حتى ظهر شخص في الخمسينيات يُدعى "مارسيل مارسو" هو صانع هذا الفن الحقيقي ومؤسسه، وأنا في تحيز شديد لهذا الرجل العظيم، تعرفين في بداية حياته شارك في المقاومة الفرنسية إبان الحرب العالمية، لكن سرعان ما تخلى عن الحياة العسكرية والسياسية، واختار أن يغرق في عالم الفن والموسيقى والتمثيل.

- (قاطعته سلمى): كريم كل اللي قولته اسمه مقدمة تاريخية خطابية، ادخل في الموضوع، اتكلم عن المايم نفسه؟

- حاضر أستاذة سلمى، كل شيء قلته مهم لا بد أن تعرفي أصل الأشياء، باختصار شـــديد، عايزك تتعلمي أن فن المايم هو صوت الصمت. كلمة البانتومايم نقســم الكلمة إلـــى (Panto)، وهي كلمة يونانية تعني الإبهار، و(Mime) تعني التقليد، ويعتمد بشكل أساسي على حركة اليدين، والوجه المعبر، ومرونة الجســد وقابليته على التعبير، ومع العناصر الخارجية زي المكياج والملابس.

كتب لي حتى لا أنسي أبدًا، بنستخدم لونين هما الأبيض والأسود لأنهمــا لونان مصمتان، ولكنهما يعربان عن التناقض المطلق مثل

الليل والنهار، فاللون الأبيض لون الفرح، والأسود لون الحزن، ثم بقية العناصر لأي عرض مسرحي.. الإضاءة والديكور والموسيقى. وعــن طريق هذه العناصر يكون التمثيل الإيمائي محملًا بكثير من المعاني أبلغ مائة مرة مما تحمله الكلمات.

طريقة كريم وكلامه بشغف وحب، انتابني شعور، أنني دخلت عالمًا سحريًا من الشخوص والحكايات يجذبني نحوه بشدة ولا أتمنى الخلاص، جلست أشاهدهم عندما اندمجوا في التمثيل، من حين لآخر يقطعهم كريم بصرخة مدوية عندما يخطئ أحد الممثلين، بجدية صارمة، عكس تعامله معهم قبل البروفة، وكأن الود شيء والعمل شيء آخر لا يقبل فيه المزاح.

دخل عمرو بهدوء، دون أن يشعر به أحد، ثم جلس جواري على أرضية الغرفة، ودون استئذان خانتني عيناي ورحبت به، بعد قليل طلب مني أن أخرج معه إلى الشرفة، كانت طويلة بطول المكان ومرتفعة تكشف شارع عماد الدين شارع الفن كما قال، أشار لي على مسرح الريحاني، ثم قال:

- انتي عارفــة إن نجيب الريحاني أصلــه عراقي، وكتير من الفنانين الســوريين بــدؤوا تجاربهم الفنية في مصـــر زي عائلة الأطرش، ولسه بيجوا مصر.

لم يضف إليّ معلومات جديدة، لكن كلماته كانت تحمل رسالة تشجيع ضمنية لأن أمضي قدمًا لتعلم فن المايم.

استأذن عمرو من كريم ووعدته بأنني سأنضم للفرقة بداية من البروفة القادمة، طلبت من عمرو أن يوصلني إلى أقرب مكان لاستقل أي وسيلة مواصلات أعود بها إلى مدينة السادس من أكتوبر، أشار إلى تاكسي حتى وصل إلى ميدان لبنان، طلب أن نجلس معًا في أحد المطاعم القريبة، لنتناول وجبة لأنه شعر بالجوع، وافقته، كان البقاء بقربه لأول مرة دون وجود آخرين ذي مذاق خاص، اختار أحد الأماكن الهادئة.

لا أدري إذا كنت سعيدة في تلك اللحظة الساحرة وأنا أسمع ما لم أسمعه من قبل، أم أنني أعيد توازن اهتزاز زلزال دمر ما تبقي من مشاعر وأمل، كأن صراخي المكبوت في حلقي يمنعني من التنفس، طلب لي عصير ليمون بالنعناع وطلب لنفسه فطيرة - بيتزا - بالخضراوات، قال إنه يحب هذا المطعم لأنه هادئ وكلاسيكي، ومن الأماكن القليلة...

- عصماء عينكي بتلمع في ضوء الشموع.

فابتسمت، لكن دون سابق إنذار، فاضت عيناي بالدموع مثل السيل، اقترب مني وجلس بجواري، ناولني منديلًا، بكيت وهو

يشاهدني، وددت لو احتضنني، لكنه توقف عند نقطة فاصلة منعته، فأحاط مقعدي بذراعه، هدأت قليلًا، ثم ناولني الليمون، استرخيت على معقدي، أشار لي بأن ننصت إلى غناء أم كلثوم.

- (ابتسم وغنى لي بصوته): إحنا نعرف بعض من فترة قصيرة، لكن عندي شعور أني باعرفك من زمان، بجد نفسي تتكلمي أنا فعلًا حاسس بيكي وحاسس إن جواكي بركان خامد، خليه ينفجر في الفن في الحب في الحياة.

ابتسمت، ثم أخرجت ورقة وقلما من حقيبتي الصغيرة، حاولت كتابة أي شيء فكرت في الماضي، ثم تراجعت حاولت أن أشرح له الحاضر .. الهروب من أسامة، الخوف من مطاردة نادية، أحكي عن هند وو هن قلبها، الخوف من مستقبل مجهول توقفت قلم أكتب أي شيء.

- عصماء أنا عارف أنك خسرتي أخوكي في الحرب، لكن الحياة هستستمر ولازم تقاومي، خلي المايم بداية جديدة، وخليكي واثقة من نجاحك، هاكون معاكي من بكره.

لا أدري كم من الوقت مضى، تقاسمت معه طعامه، أطعمني أول مثلث من الفطيرة بيده، ظل يحكي لي عن موت أمه قبل خمسة

أعوام، بسبب فيروس في الكبد وأخته الصغيرة التي تدرس في كلية الآداب، أخبرته أنني كنت أتمنى الالتحاق بنفس الكلية.

قال لي ربما يحدث في يوم ما.

ثم تطرق للحديث عن والده الذي تقاعد لسن المعاش، وكان يعمل موظفًا في وزارة الثقافة، ولذا اعتاد على حضور عروض مسرحية بحكم شغل والده، وكان في بعض الأحيان يكتب مقالات فنية عن العروض في مجلة فنية متخصصة، لذا لم يكن مجرد موظف عادي...

- (كتبت له على ورقة) شاهين كان بيكتب شعر...

ابتسم قال إن والده هو السبب في تعلق قلبه بالفن، خصوصًا المسرح، أدركت أن حياته لم تكن سهلة، ولكنها مليئة بالمغامرات بين المسارح والتمثيل والسفر، انتبه أن الوقت قد تأخر فركبنا في أول ميكروباص متجها إلى أكتوبر، وأصر أن يوصلني إلى البيت، في الطريق حكى لي قصصا طريفة عن عروض سابقة قدمها في محافظات مختلفة وجامعات عديدة ولم تخلو من الحكايات من المغامرات العاطفية.

تركني بالقرب من مساكن بيت العائلة، كنت أعد الخطوات وأفكر كيف سأبرر لهند التأخير؟

حين فتحت لي جيداء الباب، فوجئت بوجود نادية تجلس أمام هند، لم ألقِ عليها السلام، دخلت إلى الغرفة مباشرة، حاولت أن أستمع إلى أطراف الحديث من خلف الباب، لكنها همت بالاستئذان، خرجت بعد أن سمعت إغلاق الباب خلفها، طلبت من جيداء أن تقص لي ما جاء بنادية لزيارتنا. قالت هند في حسرة:

- عرفت عنواننا الجديد وما كانت تقول مين دلّها.

- (أضافت جيداء): كل هل حكي مو مهم، أسامة وثق عقد الزواج، وهيك نحنا بعملتنا هي لح تعتبر جريمة بنظر القانون.

- (ردّت هند): قالت انها لح ترفع علينا قضية سرقة وتبديد، وعطتنا مهلة نفكر فيها انو نرجعلهن من جديد.

نســيت الليلة التي قضيتها مع عمرو بعــد أن عكرت صفوها زيارة نادية، خاصةً أن هند لم تطرح أي حلول، بل لمحت إليّ بأننا غرباء وليس باليد حيلة، جيداء لم تستطع النوم. جاءت نادية تذكرها بالواقــع الأليم وتحذرها من الأحلام، ذهبت فــي غيبوبة واكتئاب وأنين لا يسمعه أحد.. خوفًا من شبح العودة، كيف لها أن تشفى من جرح لم يلتئم؟ بل فتحته نادية من جديد وعاود النزيف.

***

لكن الأمور ما لبثت أن تأزمت. تهديدات نادية كانت واضحة، جيداء زوجة أسامة، وباسل شاب عازب، ونادية تعرف أننا أقمنا عنده لفترة، تركت العمل في المحل أيضًا، بعد أن اختفت جيداء خوفًا من ملاحقة أسامة أو انزعاج صاحبة المحل.. كدنا نموت من القلق طلبت من باسل أن يخبر عمرو أن أمي مريضة، ولن أستطيع مواصلة البروفات قبل أن أطمئن عليها.

كم بكيت وتألمت وصليت من أجل جيداء، ذهبت هند للجمعية الشرعية وجلست تنظر الشيخ طلعت ساعات، ثم تعود وتذهب ويرفض مقابلتها وبالنهاية طردها، أى مصير كان ينتظرك يا هند. وكأن المصائب لا تأتي فرادى، مصيبة هند الكبرى أن أم عزيز ستسافر عند ابنتها في السعودية بعد محاولات مريرة لاستيفاء الأوراق المطلوبة لسفرهم، جاءت لوداعنا.

- هند، أنا خايفة عليك أنت والبنات، أبو عزيز بيعرف زلمة سوري مسئول، عن علائلات سورية بمنطقة بيت العيلة، إذا احتاجتِ أي شيء كلميه...

وتركت رقمه في النهاية وهي تلقي التحية والسلام الأخير قالت لها إنه وجب عليها الرحيل من أجل زوجها المنتظر، وبررت سفرها لضرورة أن يكمل عزيز دراسته، بعد أن وفر زوج ابنتها لحماه عمل فسبقها إلى هناك، لا حظنا أنها تبرر كثيرًا وكأنها تخلت

عنا لذا تركت لهند مبلغًا من المال، وقلت لها إن الرجل سيحاول المساعدة حتى تعود جيداء إلي حضنها، وأن الجميع صار يعرف بأمر زواج جيداء وسيعملون على حمايتها.

في غضون أيام قليلة عادت مكسورة مهزومة، لم تبح هذه المرة أي شيء وحين طلبت منها أن تتكلم حتى أكتب بكت، كانت تنام معظم الوقت وكأنها تهرب من الحياة إلي الأحلام، نستيقظ على صراخها تهدأ قليلًا ثم تنام مرة أخرى.

***

عملت في واحد من سلســلة مطاعم شــهيرة فــي نفس المول التجاري، كان يطل على النافورة الراقصة بعيدًا عن ساحة الطعام، بعدما ذهبت لباسل وطلبت منه مساعدتي في إيجاد عمل آخر، كنت أعمل في الداخل في المطبخ، مهمتي اقتصرت على تنظيف وغسل الأطباق، شعرت بألفة مع هذا العمل، أرمي بقايا الطعام من اللحوم والأرز والخضراوات العالقة على الأطباق في كيس من البلاستيك أسود اللون، عند امتلائه أربط عليه فيقوم زميل لي بحمله وإخراجه من الباب الخلفي، ينتظر الكيس مع الأكياس الأخرى جامع القمامة في المساء، بعد ذلك أضع الأطباق البيضاء في الماء وأمرر فوقها فرشاة لأغسلها، ثم أرصّها داخل الغسالة، أنتظر حتى تنتهي دورة

الغسل والشطف وتخرج ساخنة نظيفة، تبدو وكأنها جديدة وتستخدم لأول مرة، حين أمســحها بالفوطة فتظهر عن قرب الخدوش التي صنعتها الســكاكين، أعيــد رصها فوق بعضهـــا البعض، تختفي الخدوش حين يضع عليها قطعا جديدة من اللحم وأنواع الطعام مثل المكرونة أو الأرز والخضراوات، وتقدم لزبائن جدد.

تولد لديّ شعور بأن المسئولية باتت على عاتقي وحدي، كفى تضحيات من جيداء، فمهما فعلت لن أرد لها الجميل، ماذا لو كنت تزوجت أنا أسامة؟ كلما همت هذه الفكرة في خيالي، انغمس في العمل أكثر وأكثر.

فــي وقت الراحة أتناول الطعام مــع الزملاء الذين رحبوا بي، ويعرفون أنني لا أتحدث، لكن الاســتمتاع الحقيقي هو الاســتماع للطرائف التي يرونها مع الزبائن، يتعامل رواد المطاعم مع العاملين في الصالة على أنهم ماكينات، إذا تأخر الطعام يبدؤون في التذمر، الطرائف أيضا في الشكاوى التي يكتبها الزبائن، يتركون البقشيش وكأنهم يقطعون من جلودهم، وهو الأهم بالنسبة إلى كل من يعمل، على الأقل يغطــي تكلفة المواصلات اليومية للعمل، أمّا الشــيف الكبير فكنت أســتمتع وأنا أشــاهده يطبخ بمنتهى السرعة والدقة، يصنع التتبيــلات، ولا يخطئ أبدًا في المقاديــر من نظرة واحدة، يتحــدث قليلًا ويعمل كثيرًا، حكى لي مــرة أنه كان يعمل في أحد الفنادق، لكنه ترك العمل بعد تخفيض أجره مع أزمة الســياحة التي

شـــهدتها مصر، فجاء للعمل في هذا المطعم، وفي مشاهدة مختلفة لشـــيف آخر لا يتحدث على الإطلاق، كان يرسم لوحات فنية على الأطباق، يأخذ من كل قدر كبير يحوي بطاطسا مهروسة، ويضعها على شكل نصف دائرة في الطبق ثم يزينها بالجزر البرتقالي على أطرافهـــا، يصنع بداخلها تجويفًا لوضع الحســـاء البني والممزوج بقطع صغيرة من فطر عيش الغراب، بجانبها يضع الأرز الأحمر ذا الحبة الطويلة من قدر آخر وقدر للخضراوات، ويضع قطعة أو قطعتين من صدور الدجاج أو قطع اللحم المحمر حســب الطلب، ويغطيهـــا بالجبن أحيانًا، يخرج الطبق إلى طالبه ليســـتمتع به، لا يعبـــأ كثيرًا بمن صنعـــه وكيف وصل إليه وهـــو يتحدث إلى من يجلس أمامه على الطاولة، وهو يغرس شـــوكته في قطع الدجاج ثم يقطعها بالســـكين ليأكلها، كل هذا كان يثري تأقلمي وشغفي للعمل في المطبخ، جزء من خلية نحل تعمل في دأب من أجل تقديم أفضل خدمة للزبائن، لا ينتظر منهم غير دفع الفاتورة وترك البقشيش.

حاولـــت مـــرارًا لكني لم أســـتطع إخبار عمرو، بـــكل ما مر معنـــا، فقط قلت لــــه إنني اضطررت لترك العمـــل، لأنني وجدت عمـــلًا أفضل، طلب مني كثيرًا أن أترك العمل، وأنه سيســـاهم مع باســـل في إعالتنا، لكني رفضت واعتبرتها إهانة لي ولعائلتي، لا أدري كيـــف تحليت بهذه القوة والمثابـــرة على العمل. أنهي العمل في ميعاده، واتجه مباشـــرة لأســـتقل أول ميكروبـــاص إلى ميدان

عبد المنعم رياض، وأســير مشيًا على قدمي حتى أصل إلى أستديو عماد الدين أو نادي إيديال حسب حجز كريم والمكان المتاح، بدأت مع كريم دروســـًا خاصة ليطعمني التعبير الإيحائي بالوجه والجسد، كنـــت أؤدّي تمرينات يومية من أجل اللياقة البدنية، بخلاف تمارين الوجه، وأشاهد عروضًا للمايم عبر الإنترنت.

لكن مع نهاية حزيران، نزل الشعب المصري النزول الأكبر منذ كانون الثاني 2011، مطالبين بسقوط الرئيس محمد مرسي، فأصدر وزير الدفاع الفريق عبد الفتاح السيسي بيانًا جاء فيه، أن القوات المسلحة لن تكون طرفًا في دائرة السياسة أو الحكم، وأنه لبى نداء ومطالب الشعب المصري في نزوله الغفير، وانتهي الخطاب أن القوات المسلحة حددت من قبل مهلةً أسبوعا للتوافق والخروج من الأزمة، ومضى دون جدوى، وإن ضياع مزيد من الوقت لن يحقق إلا مزيدًا من الانقسام في مصر. وهكذا قال وما ردده الجميع، لقد عانى هذا الشعب ولم يجد من يرفق به أو يحنو عليه وهو يُلقي بعبء أخلاقي ونفسي على القوات المسلحة. فإننا نمهل الجميع 48 ساعة، كفرصة أخيرة.

شاهدنا البيان جميعًا حتى زبائن المطعم، لكن في الشوارع والميادين استمرت المظاهرات لأيام حتى الثالث من تموز ليرحل أول رئيس مصري بعد ثورة يناير ويلحق بمن سبقه، ولكن خارطة الطريق التي أُعلِن عنها كانت مختلفة هذه المرة. يرأس البلاد رئيس

المحكمة الدستورية العليا، وليس المجلس العسكري كما سبق. أرسل لي عمرو رسالة وهو في غلية السعادة، كان يحتفل مع أصدقائه ومن ضمنهم كريم في محيط قصر الاتحادية الرئاسي، وأنا كنت سعيدة لسعادة المصريين وأصدقائي في العمل الذين اشتكوا لي مرارًا من ضيق الحال وقلة الزبائن في ظل الأحداث المتلاحقة، ظل اعتصام أنصار الرئيس المعزول في ميدان رابعة العدوية بمدينة نصر، والذي بدأ لتأييد شرعية الرئيس وهو في السلطة، واستمر بعد إلقاء القبض عليه، هذا الاعتصام الذي تزامن مع بداية شهر رمضان. جاءنا رمضان للمرة الثانية في مصر، بدأت حالة جيداء تتحسن خصوصًا بعدما اطمأنت من باسل أن أسامة معتصم في ميدان رابعة مع الشيخ طلعت، ربما انشغاله بعزل الرئيس سوف ينسيه أمر زواجه منها ولو بشكل مؤقت.

وكان عمرو مسـئولًا عني بشـكل كامل، في إعـدادي لمهمة التمثيـل، يحضر معظم البروفات معـي، ويعطني النصائح كيف أتحرك على المسرح، ساعدني في اختيار الشخصيات التي أؤديها في البروفات، شـارك كلًا من كريم وسلمى واشتريا لي جزءًا من ملابس المليـم وبعض المكياج ووعدني باسـتكمال الملابس، في عشـية ليلة رمضان، أعطـى كريم للفرقة إجـازة من البروفات، ففاجأني عمرو بزيارته في المركز التجاري، أرسـل لي رسـالة مفادهـا إنه ينتظرني أمام النافـورة الراقصة في الخارج، خرجت

بملابس العمل والمريلة المعلقة على رقبتي، وجدته يحمل علبة ملفوفة وعلى الفور سلمها لي...

- بسبب الأحداث والاعتصام، احنا اتعودنا نعلق زينة رمضان في اشوارع، لكن الفانوس أهم عادة عندنا.

فتحت العلبة وأخرجت منها فانوسا نحاسيا، قال لي إنه يضيء بالشمع، كانت فرحتي بهذا الفانوس فاقت فرحة الأطفال من حولي الذين يركبون القطار ويدورون حول النافورة الراقصة، وددت لو أفعل مثلهم، انتظرني حتى انتهيت من العمل، ومررت على باسل في محل عمله، فقررنا أن نذهب إلى جيداء وهند لاصطحابهما للسحور في السيدة زينب، كما اقترح عمرو.

***

كان يوما من أجمل أيام حياتي أنتظرت حتى أنطلق في بيت عمرو، ذهبنا جميعا لقضاء سهرتنا في منطقة الحسين ابتهاجا بسماع صوتي، المشهد كان جديدا.. بشر كثيرون حول المسجد، مقاهٍ كثيرة، باعة أكثر، متسولون يزداد عددهم في رمضان، كما قيل لنا، جلسنا عند المالكي.. محل مشهور في صناعة منتجات الألبان، أكلنا آيس كريم والأرز باللبن وغيرهما، كل حسب طلبه، جلست سلمى بجوار كريم، وعمرو بجواري، وباسل ابتعد عن

جيداء تماما بقصد وتعمد ألا ينظر إليها، انشغلت جيداء بالحديث مع أخت عمرو عن مسلسلات رمضان ومواعيد إعادة الحلقات التي فاتتها بسبب الخروج، أمّا أمي فكانت تحكي لوالده عما ألم بنا وبحيلتنا بسبب الحرب ورحلتنا من سورية عبر تركيا وصولا إلي مصر دون التطرق لزواج جيداء ولكنها فقط ذكرت في اقتضاب مساعدة الجمعية الشرعية لنا في البداية، شكت له ضيق الأحوال وما كنا عليه في الشام، وعن شاهين وظافر، قاطعت الحديث بسؤال وكأني لا أريد سماع ذكريات مؤلمة.

- عمو هاد هو مسجد الإمام الحسين، عنا متله بالشام، ستي كانت كتير تحبه.

- يقال إن هنا دفن رأس الحسين، وانتم عندكم رأس الحسين كمان ولا في كربلاء.

- (ردّ باسل): وانو هي القصة الصحيحة؟

- لا مش عرف، كل ما أعرفه ان الحسين بن علي، هو سيد الشهداء عند المسلمين سنتهم وشيعتهم، قتل ودفن في كربلاء بالعراق له مقام هناك، رأس مدفون في دمشق والقاهرة ليكون له مقامان آخران.

- (علقت أنا) كيف يا عمو رأس الحسين مدفون بمصر والشام؟

- الإجابة عن هذا السؤال صعبة جدا، قتلها الباحثون والدراسون، لكن في حقائق تانية، مسجد الحسين، مقابل له جامع الأزهر، أسس بالأساس لنشر المذهب الشيعي.

- بس مصر بلد سنية؟ أنا هيك بعرف.

- احنا في مصر نمتلك مواهب خاصة في صياغة الأمور انحنا لا سنة ولا شيعة، وغالبًا المسلم المصري يعادي الشيعة لأسباب تراثية وليست عقائدية، نحن نحب أهل البيت والصحابة، صنعنا طبق حلو اسمه "عاشورا" احتفالًا بذكري عاشوراء، ولو سألنا أى حد من القاعدين حولنا عن عاشوراء، هيفتكر طبق الحلو.

- (ضحكت) وأنا بحتفل برمضان بمصر على طريقتي الخاصة، بشغّل الفانوس طول شهر رمضان.

- الفانـــوس هدية عمرو بمناســـبة رمضان، هـــذه حكاية تانية خالص.

- (ردّ عمرو) لكل حاجة عند بابا حكاية.

- (كان ردّي) متل ما بيقول كريم، لازم نعرف أصل كل شي وتاريخه.

- مش فاكر إمتى ارتبط الفانوس برمضان، قال بعض المؤرخين، مع جوهر الصقلي مؤسس القاهرة مع الفاطميين.

- (انتبهت) الفاطميون مو الاتراك؟

- الفاطميون، سبقوا الأتراك بقرون إلى مصر والشام.

أوقفـــه عمرو، طلب منه أن يتوقف عـــن درس التاريخ، فهمت أنه مولع بالتاريخ مثل شـــاهين، عمله في وزارة الثقافة المصرية، احتكاكه بالوســـط الثقافي الدائم، هكذا بـــررت ابنته ولعه بالآثار، وانتقلوا بعدها للحديث عن حديث الساعة، ميدان رابعة والاعتصام الذي يشـــارك فيه أسامة، حدثنا والده عن ثقته في خارطة الطريق الجديدة وكيفية تنفيذها.

ظل اعتصام ميدان رابعة العدوية مستمرًا، طيلة شهر رمضان، وشاع بين اللاجئين خبر أن الشيخ طلعت يجمع السوريين ويتوجه بهم إلى الميدان، ما أثار غضب المصريين واحتقانهم من السوريين، لكن الغالبية رفضت قلة من قبلوا بالمال مقابل دعم الشرعية كما قالت لهم الجمعية، لكن بدأت حملة ضدنا في الإعلام المصري، حين دعا مرة أخري الجيش المصري المصريين للنزول في ميدان التحرير من أجل التفويض لمحاربة الإرهاب. أخبرني عمرو بأنه سيفطر هذا اليوم بالميدان وأن الكنائس ستدق أجراسها وقت أذان المغرب، فأعددت طبقًا من محشي الكوسة وذهبت إليه، فلم أجد كريم وسلمى، وحين سألت عنهما قال لي...

- سلمى معترضة على القرار وبترفضه، لأنها كانت من منظمي وقفات ضد الحكم العسكري أيام حكم المجلس العسكري.

لم أتفهم قصد سلمي وكلام عمرو فلم أعلّق. كنت سعيدة بالأجواء وحكى لي عن الثمانية عشر يومًا في بداية الثورة، والدفء والوحدة. كانوا دائمًا ما يتحسرون على تلك الأيام، أمّا أنا فلا أريد الحديث عما حدث في سورية لأن ذلك سيذكرني بمن فقدتهم، ربما لو تكلمت لأختنق صوتي في حلقي من جديد فهو يعود بعودة الحياة، شرحت له حالتي وأنني عدت إلى طبيعتي أثناء بروفات المايم، لكني أخفيت على الجميع خاصة في عملي بعد علمي لاضطهاد السوريين، عاد للحديث في السياسة وأنه ضد الحملة الشرسة ضد السوريين.

- ما بدي احكي بالسياسة.

قال لي يومها وأنت صامتة كنت أرى وجهك كأنه مغطى بشال حرير لا يظهر سوى عينيكِ، عندما تحدثتِ وسقط شال الحرير صار وجهك ساطعًا مثل الشمس.

بعد أيام طُرد باسل من عمله، مرت أيام صعبة وبدأت شكاوى اللاجئين في الحي من تعنت الجمعية الشرعية في مساعدتهم

للاجئين، ودعم الشيخ طلعت لميدان رابعة، وأعلنها صراحة أن من يُرد دعم الجمعية فليذهب إلى ميدان رابعة. اشتكيت لعمرو مما حدث مع باسل؛ تركه للعمل وأن التحريض الإعلامي جنى ثماره وصار شعبيا ضدنا. في البداية صدَّق على كلامي، وفي يوم كنا مجتمعين كعادتنا في مقهى بعد البروفة قررت أحكي لهم أفعال الشيخ طلعت، وما فعله معنا عند قدومنا إلى مصر، وعن عمله في السمسرة فيما عُرِف بعد ذلك بزواج السترة. ظلت سلمى تسب وتلعن هذا الشيخ، شجعني حماسها على أن أفتح قلبي لهم...

- أختي جيدا متزوجة من شاب مصري، هو من أنصار الرئيس المعزول ومعتصم بميدان رابعة.

كانت الدهشة فوق كل تصور انتبه الجميع وصاروا أكثر تركيزا، استرسلت وشعرت براحة وأنا أقص اقتحام الشقة، وما فعلته نادية معنا وتهديدها وعما سمعته من صاحبة الصالون السورية، كانت سلمى مع كلمة تلعنهم قلت...

- أسامة تقدم لي وطلب إيدي أنا بالأول.

فجاء رد فعل عمرو مختلفًا. وأنت رفضتِ فتزوجته أختك، بالفعل اتهم السوريين بالخيانة وتعاونهم مع جماعة الإخوان، وأنهم

أولياء نعمتنا ومدينون لهم، وعلينا رد الجميل، وبدأ يدافع عن بشار الأسد وحقه في إبادة المعارضة من أجل سورية، وقبل أن يترك المكان قال...

- احترموا البلد اللي سعتكم، بدل ما تكونوا في مخيمات على الحدود.

***

مع استمرار الحظر، تأجل المهرجان التاسع للتمثيل الصامت، الذي كان مقررا من نهاية شهر آب إلى منتصف أيلول. منذ بداية أيلول لم نفارق نشرات الأخبار، اجتمع رؤساء دول العالم في قمة العشرين المنعقدة في روسيا، وكانت الأزمة السورية على رأس المناقشات. عدت إلى البروفات مع "كريم" و"سلمى" من أجل المشاركة في المهرجان. جاء "عمرو" للاعتذار، في إحدى البروفات قال لي...

- "سلمى" شرحت لي كل حاجة، وإن "باسل" ساعدكم في الهرب، كل ما في الأمر أن الحظر منعني من زيارتك في أكتوبر.

وبدأ يبرر موقفه وكلامه وأنه يكن كرها للإخوان بسبب أحداث الاتحادية العام الماضي، فقد كان معتصما هناك، وجاء أنصار

الرئيس من جماعة الإخوان وحطموا الخيمة، وأُصيب صديق له إصابة بالغة، وحكى لي عن مشاهد كثيرة من اعتداء الإخوان، وأنه لن ينسى ما فعلوه.

- صدقني إن النظام هو اللي ضرب الأطفال بالسلاح الكيماوي، في شكوك كثيرة بشأن ضرب المعارضة لتوريط النظام.

- النظام أو المعارضة، بالنهاية هاد الصراع نحن يلي عم ندفع تمنه من أرواحنا وغربتنا وشتاتنا.

واستمر في تبريراته غير المقنعة بالنسبة لي أن *الحياة قاسية وتعلمنا دروسا، والحقيقة إن الشيخ طلعت وأمثاله، كل ما فعلوه مع اللاجئين لم يكن بدافع إنساني، والأيام كشفت كل شيء، كل هذا لا يهم،* زعله سببه *أنني أخفيتِ عليه أمر زواج "جيداء"*.

قبل أن أتركه قلت...

- أنت عم تعاقبني على ذنب مو ذنبي، بعكس كريم وسلمى يلي اتأثروا بيلي سمعوه، أما انت بدك البنت يلي راسمها بمخك وبس، وما بيهمك ليش انا عم اصفن وظلني ساكتة، ما بعرف لكن شو كان صار فيني لو وافقت على أسامة.

نظــرت إليــه، تنمر وهــو صامت، لــم يجد لديــه ردا على ما أقوله...

- صرت باعرف ردك، أنت بس بدك مني اني اقعد اسمع لك طول الوقت لكل شي صعب انت مريت فيه، او حتى لمغامراتك الظريفة، وما بدك تسمع مني إلا يلي انت بدك ياه، معك حق، يمكن نحنا إجينا على مصر لأنو كنا منعرف انو مالح نعيش بخيم عندكن على الحدود.

عدت لاستكمال البروفة، تطلعت أن أقول له إن "شاهين" قُتِل بأيدي قوات الأمن، و"ظافر" وُجِدَت جثته ملقاة بين الجثث داخل المركز الثقافي للمعرة، حتى "أيهم" الذي دافع عن النظام اغتِيل في تفجير إرهابي استهدف الجامعة. في عالم السياسة الاغتيال يكون في كثير من الأحيان هو الحل الوحيد الذي يلجأ إليه الساسة من أجل البقاء، وأحيانا يلجأ آخرون إلى الزج بالدين في السياسة، من أجل إيجاد إطار يغلفون به أعمالهم الإجرامية، هذا هو امتزاج الأسود والأبيض، ليصبح اللون الرمادي هو سيد الموقف، ويغيم الأفق بسحابات رمادية، فنسير في دروب ضبابية، ولا يستطيع سائق القاطرة مواصلة السير، ونضل الطريق.

***

ذهبت وحدي إلى "الجمعية الشرعية" بعد أن استأذنت من مديري، لأنني سأتأخر عن موعد دوامي اليومي، انتظرت الشيخ "طلعت" في مكتبه بالطابق العلوي، حتى انتهى من صلاة الظهر،

جاء بكامل هيبته، لكن شــيئا ما أطفأ هيبته، لــم ينظر إليّ مطلقا، سألني عن "جيداء" فقلت له:

- مريضة

لم يطل الحديث:

- أسامة استشهد في فض اعتصام رابعة العدوية.

عرض لي مقطعا مصورا على شاشة هاتفه، شاهدت جثته بين الجثث التي احتفظوا بها داخل مسجد "الإيمان" تركته وهو يلعن ويقول في شماتة:

- أختك بقيت أرملة، أتمنى تكون ارتاحت.

لم أقوَ على الرد عليه، تركته وقدماي لا تقويان على حملي، كنت أنزل الدرج وكأنني أنزل من فوق جبل شاهق الارتفاع، ظلوا محتفظين بالجثة أياما مغطاة بالثلوج في هذا الحر، التفاصيل كانت مؤلمة، كان عليّ أن أقص لجيداء ما حدث قبل الذهاب إلى العمل، فعدت إلى البيت، جلست صامتة فبادرت بالحديث:

- قبــل أي شــي، عمرو حكــى معي وقال انهــم وصلوا على الإســكندرية، وانهم عم يفطروا علــى البحر، وهلق هنن بطريقهم للمينا.

- والشيخ طلعت؟

- (صمت قليلًا) أسامة رحمه اللـه.

تركتها ترتاح وذهبت إلى عملي متأخرة، موت أسامة استدعى كل الذكريات الأليمة، موت شاهين ورحيله، هل فعل ظافر بنفسه ما فعله أسامة، انضم للجيش الحر فقُتل على يد الجيش النظامي؟ هل من مجيب؟ وماذا عن انفجار جامعة حلب؟ اتهم الجيش الحر الجيش الأسدي، والنظام اتهم الجماعات الإرهابية المتطرفة، بالفعل تخلصت جيداء من أسامة للأبد، بعد أن أصبحت أرملة قالت لي وهي تبكي بحرقة:

- مالح أنسى يلي عملو معي طول عمري، عمري ما تمنيت له الموت، بس تمنيت انهم يقبضوا عليه ويرموه بالسجن.

- جيدا، أسامة كان معتقل متل باسل.

- اني ما عشتي متل ما انا عشت، كنت أسيرة عنده لفترة حسيتها سنين، وكنت موت ألف موتة واللـه يعلم شو راح يصير.

احتضنتُها...

- خلاص بيكفي، لازم ترفعي راسك من أول وجديد، بعرف أنك تعذبتي كتير ودفعتي تمن كتير كبير، بس بكرا مع هل أيام لح تنسي شوي شوي.

- كيف لح انسى و ها الماضي لستاه معي؟!

تذكرت شعاع الشمس الذي كان ينتظره كل صباح، حين يدخل إليه من بين القضبان ليصفع وجهه، وكيف مات، والشيخ طلعت ما زال حيا يرزق على رغم كل ما فعله، هل جيداء لم تحزن علي موت أسامة؟ تركتها منهارة من البكاء، كيف تحزن على رجل كان يريد الزواج بأختها، ثم تزوجها بعد وفاة أخيها بأيام، أي سترة تتستر بها، وهي تعرت أمامه رغما عنها. تركت الماء ينساب فوق الطبق لكي أزيل آثار الكاتشب وأنواع الصلصات الملتصقة بأطرافه، وحملته حتى أضعه في الغسالة، فوقع من بين يدي وانكسر.

كاد المدير يطردني، يكفي أنني من السوريين القلائل المحتفظين بعملهم، لولا تدخل الشيف، بعد أن شرحت له، لماذا صمت؟ ومتى تحدثت؟ طلب لي إجازة من العمل، قال لي:

-عصماء ترجعي من الإجازة، زي ما بنقول عندنا في المثل "أنظف من الصيني بعد غسله".

نمت لمدة يومين، في اليوم الثالث ذهبت لحضور إحدى بروفات مسرحية عمرو الجديدة، والمقرر عرضها في موسم عيد الأضحى،

لم تحب جيداء الذهاب معي إلى المسرح، فقلبها لن يهدأ حتى تطمئن على باسل.. يكفيها ما تسمعه في نشرات الأخبار عن غرق المهاجرين غير الشرعيين. قبل العرض جلست معه على المقهى أمام باب المسرح وشرح لي تاريخ المكان...

- عمو صحيح قال أن "الهناجر" كان مكان لشحن الطيارات الحربية، وبعدين القوات المسلحة أهدته لوزارة الثقافة بعد ما بنو الأوبرا، وبعدها صار مسرح من ضمن مسارح ساحة الاوبرا.

ابتسمت...

- شو بيتكلم سوري، وكمان صرت متل عمو بتعرف كل شي.

- زي ما قال كريم لازم نعرف أصل كل شي وتاريخه.

ضحكت ثم بدأ يتحدث عن العرض، كنت أسمعه ولا أعلق، حتى انضم إلينا "كريم" و"سلمى" وقبل أن يجلس "كريم" صرخ في وجهي...

- أنتِ فين؟ وليه مش بتردي عليّ ناسية البروفات؟

ردّ "عمرو"...

- اعذرها كانت نائمة يومين.

تركت كريم وسلمى يجلسان في الصالة وحدهما، وجلست بجوار عمرو في غرفة التحكم. غرفة مرتفعة في نهاية الصالة تكشف الصالة والمسرح. مع بداية البروفة كنت أراقبه وهو ينظر في الأوراق بأرقام معينة، وأمامه لوحة مفاتيح وأزرار كثيرة، لاحقا قال لي إن هذه الأوراق تسمى خريطة الإضاءة. كان العرض لواحدة من مسرحيات ويليام شكسبير، مسرحية "ريتشارد الثالث".

تهت بين الشخصيات (دوق بكنجهام، ريتشارد دوق جلوستر، الليدي آن) والملابس والموسيقى وتحركات الممثلين على خشبة المسرح.

الملك ريتشارد:

- من يقطع علينا طريقنا؟

الدوقة:

- إنها تلك التي ينبغي لها أن تقطع عليك الطريق، بأن تخنقك في رحمها من الريجيم، فلا تقترف ما اقترفت من مذابح وتجلب ما جلبت من مآس.

- انفخوا أبواقكم يا حملة الأبواق! ودقوا طبولكم يا حملة الطبول، حتى لا تسمع السماء تلك المرأة وهي تحمل عليّ من بركة زيت اللـه المقدس، قلت لكم انفخوا، دقوا!

(تمتلئ القاعة بأصوات الطبول والأبواق)

فأضاف الملك ريتشارد:

- إما أن تتجملي بالصبر وتحسني الحديث، وإما أغرق صيحات شكوكي هكذا في موسيقى الحرب الصاخبة.

موسيقى الحرب ظلت في أذنيّ، وكأنها تأتي من عند "ظافر" و"شاهين" ولكن "باسل" لا يسمعها، أما أنا و"جيداء" و"هند" ما زلنا نسمعها، إنها لا تفارقنا.

بعد البروفة قررنا الذهاب لتناول الطعام، خرجنا من الأوبرا باتجاه جسر الجلاء، ويسبقنا بخطوات كريم وسلمى. ظل يتحدث معي عن عروض قدمها على المسرح من قبل، مثل عرضه المسرحي "ليدي ماكبث"، كان الأشهر الذي سافر مع الفرقة وعرض في عدة دول عربية، حاول جذبي للحديث والرد فحدثني عن عرضي المقرر من مهرجان المايم، وأكد لي أهمية الاستعداد له بشكل كاف، لربما تنال المسرحية الجائزة، وقال إنه سيحضر معي البروفات الآتية. عن حالي لا أسمعه ولا أعبأ بكلامه، لم أعلق بأي كلام بالرغم من حماسه. توقف حين تأكد بأنني غير مهتمة فغيّر مجرى الحديث كليًا فسألني...

- طمنيني، أخبار جيدا إيه؟ زعلت على موت أسامة.

- ما بظن، بس هي قلقانة على باسل.

- وأنا قلقان أكثر منها، الرجل المســئول عن سفره قال لي في الطريق واحنا راجعين من الإســكندرية، إن الســلطات المصرية بتعتقل السوريين الهاربين بالهجرة غير الشرعية.

- بتمنى يعتقلوه ولا يطلع بالبحر ويموت غريق، أنا مع السلطات لو فكروا بيوم انهم يحافظوا على حياته، عمرو ما لح خبي عليك، حاسنة انتي مشفقة على حالي، ما اثر فيني كتير موت أسامة، كل يلي تأثرت فيه انه ذكرني بكل يلي فقدتهم، حتى لما حكالي عن يوم اعتقلوه بسبب العرض العسكري، ما شفقت عليه أبدا، بعكس تأثري لما اعتقلوا باسل بسورية.

- أنا فاهم شعورك، بسبب كرهك لـ شخص أسامة، والشماتة في موته غير مبررة، لكن الفطرة الإنسانية، لأننا عارفين أن أسامة اعتُقل لأفكار هو يؤمن بها وحده، وعلى استعداد لتنفيذها حتى لو تتطلب منه الأمر عنفا، ومستعد للتضحية وفقدان حياته علشانها، أنت بتحبي باسل لشخصه ولأنه اعتقل علشان الحرية وتحقيق العدالة، ورحل عن وطنه وهرب لينجو بنفسه، وركب عرض البحر مرة تانية دي غريزة البقاء والحياة، وهي أسمى ما يطلبه الإنسان.

- يلي عم تقولو منو مبرر بيكفي ما يخلينا نتعاطف مع موته؟

لم يرد، وأخرج من جيبه لفافة صغيرة، ثم أمسك يدي وأخرج من اللفافة قفازا أبيض ألبسني إياه.

- آخر حاجة ناقصة من ملابس المايم.

ارتديت القفاز، وأمسكت بسور الجسر، لم نعبأ بسلمى وكريم وتحدثنا ونحن نمسك بالسور.

- فهمني هي اللحظة وهاد الشعور، انو كون واقفة على جسر صغير وكأني طايرة فوق نهر النيل بمصر.

- أولا اسمه "كوبري"، قال جسر قال، والتفسير الوحيد اسمه "القدر جمعنا".

- نحنا هيك منسميه "جسر" وعلى كل حل أنا مبسوطة بهل قدر يلي على جسر نهر النيل.

- والجسر سعيد بوجودك الليلة، فيه ناس كده تشبه الأنهار تكون مصدر الخير، حولها فدادين خضراء، ومصدرها أمطار وشلال نقاء وعطاء.

- وفي ناس متل البحر، مرات موجها بيكون عالي ومرات بيصير هادي ورايق، بس باعماقها بتلاقي حياة.

- لكن فيه ناس تشبه البحيرات، بتكون راكدة إلا إذا كانت متصلة بنهر أو بحر، وإلا تكون غير صالحة للحياة وبتتحول لمستنقعات.

- وأنا بعرف ناس كتير صاروا مستنقعات، لك صحيح بدي أعرف هو هاد الجسر أو الكوبري يلي عبدالحليم استنى فلتن حمامة، بس هي ما جت على الموعد، وتركته يحترق تحت الشمس؟

- لا كوبري عبد الحليم الكوبري المقابل لمدخل الأوبرا، اسمه كوبري قصر النيل، بكرة بنروح هناك.

وهمس في أذني "كان يوم حبك أجمل صدفة. لما قابلتك مرة صدفة" ثم قبّل يدي، علقت يدي يده، عشّقت أصابعي داخل أصابعه، ونحن نعبر الشارع، لأدرك أن الحب يكمن في تلك التفاصيل الصغيرة، لا يحتاج إلى قصائد الشعر وكل أغاني الغرام. اتجهنا نحو مطعم "كتاكي" القريب من ميدان "فيني" كما وصف لي، وتركني أطلب لأكتشف أن جميع العاملين من الصم والبكم(*)، تعاملت معهم بلغة الإشارة وإيحاءات الوجه، وتذكرت أول لقاء جمعني مع سلمى لتكون بداية جديدة ونقطة تحول في مسار حياتي.

(*) الفرع مخصص للخدمات الاجتماعية.

قال عمرو لي هامسا:

- دا أفضل فرع لدجاج "كنتاكي" في مصر، جينا هنا عشانك

تدخلت سلمى...

- بتقول لهـــا إيه بصوت واطي؟ عصمـــا... فاكرة أول بروفة مايم؟ وكلام كريم عن "مارســيل مارســو" وإن الفن غيّر حياته، أوروبا اختفت بعد الحرب العالمية الثانية.

بتردد...

- أنا ما عاد فيني كمل العرض، وكمان الفوز صعب عليّ قدام هيك عارضين.

رد "عمرو"...

- يكفيكي شرف المحاولة، ارمي وراءكي الحزن، الثأر، الدم، الكره، الحقد، كل أحلامنا في يوم هتكون حقيقة، وأنا معاكي.

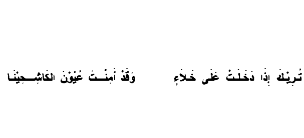
- والوجع يا عمرو؟

- الوجع يعلمنا أن نقدر السعادة.

الفصل الخامس

اليد البيضاء





تُرِيْكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلاَءٍ وَقَدْ أَمِنَــتْ عُيُوْنَ الكَاشِــحِيْنَا



مشـــهد جديد يلاشي بزهوه المشـــهد القديم، عندما كان المكان حلـــب، ابن العم "خاطـــر" والصديقة "صبا" أيـــن هي الآن؟ هل ستجمعنا الحياة مجددا، كان الحبيب "أيهم". فنحن نعرف البدايات، لكن مصائرنا معلقة لا ندري إلى أين تأخذنا، لنصنع بدايات جديدة، ســيعكف الدارســون والباحثون يوما على حصر أعداد الضحايا والشهداء الذين ســقطوا في الحرب، ومهما كانت النتائج والأرقام والإحصائيـــات ومن المنتصر؟ إن تكلفة الحروب ليســت في هذه الأرقـــام من القتلـــى والأموال التي أُنفِقَت، ربما ســيغفل الباحثون عـــن ذكر مـــن تركوا وطنهـــم وأحلامهم، وعندما يعـــودون إليها فلـــن يجدوا الديار وســـاكنيها، لقد كتبت علـــى أوراق الدفتر الذي أهداه إليّ "ظافر" لم أحضر المحاضـــرات، لكنني كتبت للتاريخ، وفي لحظة اكتشـــفت أنني لا أملك الحقيقـــة الكاملة، لماذا لم يكتب "شاهين" الشعر؟ والعشب الذي تحول إلى الأصفر بإهمال ساكنيه في بيـــت جدتي، عنق أبي علاء قطعوها، زرت المركز وأنا طفلة صغيرة، تذكرت فاجعة موت "شـــاهين" ودماءه الطاهرة، "ظافر"

كان يلعب هناك في الملعب البلدي، الملعب تحول إلى ساحة من ساحات المعركة، لم أذهب مع "أيهم" إلى الجامعة، اغتيل وهو في طريقه لأداء امتحان العمارة، كل الأسباب تجمعت فلم أدخل قاعة محاضرات اللغة، "هند" مات زوجها وابنها، وعبث بها وبحياة بناتها العابثون، "جيداء" كان أقصى طموحاتها الزواج برجل إدلبي حلبي وكفى، رحلت بعيدا، تزوجت "أسامة" من هو "أسامة"؟ عرفناه ولم نعرفه، وما حقيقة ما وراء الأبواب المغلقة؟ مهما حكت لي، ومهما كتبت عن لسانها، فقط هي القادرة على وصف ما عاشته، مات زوجها، تعلمت كيف تعمل، وخفق قلبها بالحب، "باسل" قابل "ظافر" في الشام، ربما من أجل اللقاء بنا في مصر، أين هو الآن؟ هل ينجو من أمواج البحر العالية؟ أم تبلعه سمكة، أما أنا سأقدم عرضا مسرحيا في الغد. يا الله، كتبت عن "كريم" و"سلمى" و"عمرو" في دفتر المحاضرات، من هؤلاء؟ من أحلام الماضي ربما هم المستقبل، فجأة تذكرت، لا أحد يقرأ، ودون أن أدري قطعت الأوراق التي كتبتها عن أيام الصمت، وفتحت النافذة وأطلقتها في الهواء فتساقطت مثل حبات ثلج أبيض، فقد يعثر عليها يوما أحد نباشي القبور في إحدى جولاته الليلية بين كلية الآداب وكلية الهندسة، سيكتشف سر صبيّة أصابتها حالة من الصمم القلبي والخرس اللاشعوري، ولن يستدل أحد على قبرها ويظل يبحث ليعرف مؤلفها أو زمن كتابتها.

عندما عدت إلى الدفتر، وجدت قُتاتا متبقيا من الأوراق

المقطوعة مـــا زال عالقا فيه، لأن فُتات الذكريات يظل عالقا مهما حاولنا التخلص منه، الأهم أن أمامي الآن صفحة جديدة يمكنني أن أكتب فيها ما أشاء.

طرقت جيداء الباب (لكن ليس بحماس وسعادة كما توقعت):

- عصما، عمرو عم يتصل فيكي ليش ما بتردي عليه،

- صار شي؟

- قبضوا على الراجل اللي كان بيسرف باسل بالبحر، ما بنعرف شو صار لباسل مقبوض عليه ولا غرق بالبحر، ولا إن شاالله بيكون وصل بالسلامة.

- شقيت كل يلي كتبته بالدفتر.

- لا تقولي.

- ما حدا كان لح يقراه.

أيقظني عمرو من رقدتي فوق خشبة المسرح:

- رئيس اللجنة وصل.

ارتديت السواد، وضعت آخر لمسات المكياج، الهالات السوداء حول عينيّ تأثرت بنومي على الأرض، فرسمتها من جديد، تسقط منها دمعة سوداء على وجهي ناصع البياض، وضعت حمرة حول شفتيّ، ثم ارتديت القفازات البيضاء، ستحرر يوما من سواد الغراب أنا فقط نسجت من الصمت شرنقة ربما سيأتي الوقت القريب للتحليق فوق الدمار.

سيناريو العرض:

المســـرح كان خاليا تماما، يُسلَّط الضوء على "عصماء" وهي تدخل من زاوية المسرح...

أتحرك ببطء وتبدأ موســيقى الحرب تدق. تضع يدي على أذني حتى لا أسمع، ثم تجري نحو زاوية أخرى. تجمع ثيابا داخل حقيبة صغيرة، تصاحبها موســيقى الوداع. وبعد خطوات تجلس بجوار خيمة، تضع غطاء من شــدة البرد. تتغير الموســيقى إلى موسيقى الزحام، وتتوه بين أشـــخاص يدخلون المسرح، من بينهم شيخ كبير يمســك يدها، تدخل قفصا، تقف خلف قضبانه مع تغير الموسيقى، تظــل تبكي داخل هذا القفص، حتى يظهر شـــاب يمد يده ليمســك بيدها البيضاء، ويكسر القضبان. وتتغير الموسيقى. ويهديها وردة حمراء.

هذا سيناريو العرض، قرأته لآخر مرة، كان مقررا في العرض أن أخلع اللباس الأســود، لأظهر بملابس ملونـــة، رفضت، ربما أفعلها في عرض آخر.

شكر

إلى المصور الراحل محمد الحويطي

"الذي أمدني بمعلومات الحرب في سورية".

وهفال أديب

"الذي راجع معي اللهجة السورية".

ومحمد عبد الله

"ممثل ومخرج المايم".



المؤلفة في سطور

هديل محمود هويدي

- مواليـــد 1985، تخرجت من كلية الســـياحة والفنادق قســـم الإرشاد السياحي.
- عملت في مجال السياحة.
- صدر للكاتبة مجموعة قصصية باســـم "كيوبيد توليب" عام 2013.

البريد الإلكتروني:

hadeelhewidy@gmail.com



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm